

د. محمد بهي الدين سالم

# ابن باديين

فارس الإصلاح والتّوير

دار الشروق



## مقدمة

أولاً؛ أود أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور محمد بهي الدين سالم - مؤلف الكتاب - على هذا الإنجاز الفكري الثرى لجهد عالم من علماء النهضة الإسلامية في العصر الحديث ألا وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس، مفجر النهضة بالجزائر.

إن كتاب الأستاذ محمد بهي الدين سالم يعد شعاعاً من أشعة الشمس الساطعة يظهر في فترة ضبابية تسود الآن، ويريد البعض منها تشويه الدين الإسلامي.

ولمواجهة هذا التحدي الكبير، يجب علينا أن نرجع إلى الرواد الأوائل الذين حاولوا في مطلع هذا القرن، أن يجددوا الفكر الإسلامي في مصر؛ أمثال محمد عبده ورشيد رضا، وعلى عبد الرازق، وفي الجزائر ابن باديس، فارس الإصلاح والتنوير.

فالإصلاح كلمة أصيلة تدعو إلى التغيير نحو التقدم مع الحفاظ على الأصالة والجدور.

وهذا الكتاب هو مكسب لكل مسلم حريص على دينه، يجب أن يقرأه لأنه يسلط الضوء بنظرة إيجابية على حياة وجهد عالم من علماء النهضة الإسلامية في الجزائر الذي قال «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب، من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب».

الأستاذ الدكتور محمد بهي الدين سالم ينقل لنا فهمه لسلوك وفكر ابن باديس الذي يركز على نظرية الوسطية في الإسلام، والتي قاوم بها الشيخ ابن باديس عدوين في آن واحد.

أولاً: الجهل وضعف الثقافة الدينية الصحيحة المشجعة على استيعاب التقدم والتحديث.

ثانياً: الاستعمار الذي حاول مسخ الهوية الجزائرية.

إن المعركة التي قادها ابن باديس تعنينا جميعا، وقد وقعت في ظروف غير التي نحن فيها الآن، وهذا ما أدركه صديقي الأستاذ الدكتور محمد بهي الدين سالم .  
إن الشعب الجزائري العربي المسلم يقدر هذا الإنجاز العلمي والتاريخي الكبير، الذي يتناول بأمانة علمية ودقة المنهج الإصلاحي لابن باديس، ويبين أن الإصلاح كان بمثابة ثورة .

حقا؛ إن العلامة الشيخ ابن باديس يوجه فكره إلى عالمه الإسلامي، عكس ما يفعله البعض . فهو يحترم الرأي الآخر وبالأخص المدرسة الصوفية ويعلم أن منهجها روحاني لا يتناقض مع فكره الإصلاحي، وقد سبقه في ذلك الأمير عبد القادر أبو المدرسة الإصلاحية المتفتحة مع المدرسة الصوفية الملتزمة بالدفاع عن الأصالة والهوية الوطنية .

وأخيرا أجدد شكري مرة أخرى لمؤلف الكتاب على هذا الإنجاز المهم الذي يضاف إلى مكتبة الفكر الإسلامي عن مدرسة الشيخ عبد الحميد بن باديس تعزيزا لمفهوم الإسلام المستنير الداعي إلى التقدم والرقى .

**د. مصطفى شريف**  
سفير الجزائر بالقاهرة والمندوب  
الدائم لدى الجامعة العربية  
وزير التعليم العالي بالجزائر سابقا

## إهداء

بسم الله الرحمن الرحيم، عليك توكلت، وإليك أنيب، وأنت أحكم الحاكمين .  
فى العمر أيام لا تنسى لما فيها من ذكريات تحمل العديد من المواقف التى تشكل  
شخصية الإنسان، وربما تغير مجرى حياته وتطلعاته المستقبلية .

من بين هذه الأيام قضيت بوطنى الثانى الجزائر الحبيب فترة من شرح الشباب،  
أحلى أيام العمر، أحسست خلالها أنى لم أنتقل من وطنى الأم (مصر الكنانة) إلى  
أرض تبعد عنها آلاف الأميال . . . لم؟ لأنى شعرت أنى بين أهلى وعشيرتى ليس بينى  
وبينهم شعور بالغربة أو اختلاف فى الدين واللغة أو العادات والتقاليد، أناس  
طيون، طبيعة خلابة، لم يغير المستعمر الغاصب جوهرهم، عروبتهم، إسلامهم رغم  
أنه جثم على صدورهم مائة واثنين وثلاثين عاما حاول خلالها القضاء على هويتهم -  
ولكن دون جدوى .

طبيعة خلابة معطاءة توحى باللانهاية من عمق التفكير فيما وهب الله سبحانه هذه  
البلاد من خيرات ونعم .

ثم يد الرجال تعيد بناء ما خلفه المستعمر من دمار، وتزرع الأرض التى أهملها -  
عامداً حتى يحرم أهلها من خيرها، وتبحث فى باطن ترابها ومياهها عن معادنها،  
وخاصة (البتروى) الذى قيل عنه إنه مخلوط بدم المجاهدين من أبناء الجزائر .

نهضة وعمل دءوب فى كل الميادين بقصد تعويض سنوات الاستعمار والقهر التى  
كانت حصيلتها فوق الدمار دماً وأرواحاً أكثر من مليون شهيد .

وأما التعريب فذلك وحده (قصة) وكنت هناك ضمن العاملين بالمؤسسات التعليمية  
المختلفة، وفدنا من أغلب البلاد العربية للمشاركة فى إعادة الوجه العربى المسلم للقطر  
الجزائرى الشقيق .

سبع سنوات متصلة أقدم جهدى المتواضع فى الميدان التربوى .  
وكيف أنسى وولد لى على أرضها وتحت سمائها (حسام - ويسمة) أرى دائما فى  
وجهيهما صورة هذه الأيام الطيبة ، وشعب الجزائر الكريم المضياف والعلاقة الوطيدة  
التي ربطتني بعدد كبير من أبناء الجزائر العاصمة ، داخل وخارج العمل .  
من هذا المنطلق أهدى هذا العمل خالصاً لوجه الله ، ورمزاً لحبى وتقديرى واعتزازى  
للجزائر فرداً فرداً . . أرضاً وسماً ، وماءً ، وسيظل هذا الوفاء - إن شاء الله - إلى أن  
ألقى الله سبحانه وتعالى .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ  
اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [سورة الرعد الآية ١٧] .

د / محمد بهى الدين سالم

القاهرة فى ١٢ من ربيع الأول ١٤١٨ هـ

الموافق ١٧ يوليو ١٩٩٧ م

## فاتحة القول

نستفتح بسم الله الرحمن الرحيم، ونصلي ونسلم على المصلح الأول، نبي الهدى والرشاد رسول المحبة والسلام محمد - صلوات الله وسلامه عليه.

أخي القارئ العزيز، لعلك تتفق معي على أن كل عمل جيد يسبقه - لا بد - دراسة جدوى تحدد مدى نجاحه، وبلوغه الهدف المرجو منه، والعمل العلمي - بصفة خاصة - يسبقه الكثير من القراءات إلى أن يقتنع الكاتب أو الباحث بجدوى ما يكتب، وبالفائدة التي يأمل أن يجنيها القارئ، وبالأخص الموضوعات التي تتعلق برموز الإصلاح والتنوير الذين لهم بصمات وشأن في أوطانهم، الأحياء منهم والأموات.

من هذا المنطلق فكرت أن أعرف بفارس من فرسان الكلمة المؤمنة الصادقة، ألا وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس، والحديث عن ابن باديس إنما هو حديث كفاح أمة بأثرها، فهو مصلح ديني، ومعلم قدير، ومفت مجتهد، وأديب عملاق، وصحفي ذائع الصيت، ثم مفسر واسع الاطلاع، له تجليات في تفسيره لآيات الذكر الحكيم.

وهو - أيضا - رمز من رموز التنوير في وطنه الجزائر والأوطان العربية والإسلامية الأخرى.

لذا عزيزي القارئ وضعت نصب عيني مكانة ابن باديس المميزة، وعلمه الواسع المتعدد الجوانب، وتضحياته، من أجل تحرير وطنه من يد المستعمر الغاصب.

وأيضاً حبي لوطني الثاني الجزائر الحبيب، ولا أبالغ إن قلت إنني قرأت الكثير أو كل ما كتب عن ابن باديس فترة وجودي بالجزائر، وإلى أن هممت أسجل هذه القراءات، واخترت عنواناً لهذا التعريف: «ابن باديس في مرآة التاريخ» لكنني عدت فرأيت أنه من الأنسب، ومراعياً لمقتضى الحال أن يكون العنوان: -

«ابن باديس، فارس الإصلاح والتنوير».

قسمت العمل إلى عدة أبواب تحت كل باب عدد من المحاور:

#### الباب الأول: التمهيد

- \* الجزائر العربية المسلمة .
- \* الفتح العربي والدين الإسلامى .
- \* التعليم العربى واللغة العربية .

\*\*\*

#### الباب الثانى: عبد الحميد بن باديس

- \* مولده ونشأته .
- \* رحلته إلى الحجاز وأقطار المشرق العربى .
- \* العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته .
- \* مجهوداته ومكانته .
- \* وفاته .

\*\*\*

#### الباب الثالث: دراسة وتطبيق

- \* ابن باديس الخطيب .
- \* ابن باديس المصلح والمربى .
- \* ابن باديس الصحافى والمجاهد السياسى .

\*\*\*

#### الباب الرابع: الإصلاح فى مرآة التاريخ الجزائرى

- \* واقع الجزائر وثورة الإصلاح .
- \* عوامل ظهور حركة الإصلاح الدينى .
- \* عبد الحميد بن باديس ومنهجه فى الإصلاح .
- \* دعوات الإصلاح تلتقى [الأفغانى - محمد عبده - رشيد رضا - ابن باديس].

#### الباب الخامس: مفهوم التربية عند ابن باديس.

- \* مقترحاته لتغيير المنهجية فى التربية والتعليم .
- \* مجهوداته التعليمية .



- \* المحاور التعليمية والدينية والثقافية لابن باديس والعلماء .
- \* موقف الاستعمار من مجهودات ابن باديس .
- \* التربية الأخلاقية عند ابن باديس .

\*\*\*

الباب السادس، التقييم عند ابن باديس

- \* الحكمة .
- \* النزعة العقلانية والأخلاقية .
- \* النزعة الإنسانية والجمالية .
- \* تكريم العقل .

\*\*\*

الباب السابع، جوانب من أعمال ابن باديس وآثاره

- \* [أقوال - مقالات - فتاوى - تعريف بالرجال - إلى جانب نماذج من تفسيره في مجالس التذكير].

وبعد،

عزيزي القارئ أسأل الله جل في علاه أن أكون قد وفقت في تسجيل انطباعاتي - المختصرة - حول جوانب من فكر وآثار ابن باديس من خلال مصادرها الأصلية، واجتهادات من سبقوني بالكتابة عنه؛ تأليفاً أو إعداداً أو جمعاً لآثاره .

ولعل جهدي - المتواضع هذا - يعبر عن مدى حبي وتقديري لرمز من رموز التنوير، وما كان له من فضل في إصلاح أمته بما قدم من أعمال وتضحيات ستظل باقية أبد الدهر، فالعظماء لا يموتون أبداً فأفعالهم وآثارهم تخلد لهم وتجدد ذكراهم .

﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الداريات الآية ٥٥].

هذا وبالله التوفيق،،،



# الباب الأول

## التمهيد

- الجزائر العربية المسلمة.
- الفتح العربي والدين الإسلامي.
- التعليم العربي واللغة العربية.



## التمهيد

### الجزائر العربية المسلمة

قبل أن نتحدث عن فارس الكلمة المؤمنة الصادقة الهادفة؛ الشيخ عبد الحميد بن باديس، ذلك الرمز المميز من رموز الإصلاح الديني لا في الجزائر وحدها - حيث ولد وعاش، وكانت دعوته الإصلاحية - وإنما فيما اشترك مع الجزائر من أوطان عربية إسلامية في الكفاح ضد الاستعمار، وفوق هذا وقبل هذا في وحدة الدين واللغة والآمال في حياة حرة كريمة، ترفرف عليها رايات المحبة والسلام النابعين من قيم ومبادئ إسلامنا الحنيف.

لذا.....

كان لزاماً أن نبدأ الحديث بالمقامة مختصرة تؤرخ للقطر الجزائري . . . اسماً؛ ديناً؛ لغة من خلال الفتح العربي، وكفاحه لتمكين اللغة العربية والدين الإسلامي بين أبنائه.

\*\* لماذا أطلقوا على هذه الأرض الشاسعة الغنية الممتدة من بين حدود تونس شرقاً، والمغرب غرباً اسم «قطر الجزائر» وهل هذا القطر مؤلف من مجموعة من الجزر البحرية حتى استحق هذا الاسم؟

وللإجابة عن هذا السؤال يقول المؤرخون :

إن هذا القطر كان يدعى في التاريخ العربي القديم «المغرب الأوسط» إلى سنة ١٥٠٠ ميلادية، حين تدخل الأتراك العثمانيون في أمره استجابة لطلب أهله، وساعدوا على إنقاذه من السقوط تحت ضربات الاستعمار الإسباني الفتاك بعد أن انتهى أمر الممالك الإسلامية ببلاد الأندلس.

وجمع الأتراك العثمانيون ورجال المغرب الأوسط سائر البلاد تحت إدارة مركزية موحدة، اتخذوا عاصمة لها بلدة صغيرة ذات موقع جغرافي ممتاز تتوسط الساحل كأنها

درة تاجه تدعى (جزائر بنى فرغنة) لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها، تستعملها لحماية سفنها، والدفاع عن ديارها ضد غارات الأعداء .

وأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرون تلك المدينة وينشئون بها الدور والقصور إلى أن تفخمت وأصبحت من أكبر المدن الإفريقية قاطبة وصارت تدعى (مدينة الجزائر) ثم أطلقوا اسمها على كامل البلاد المترامية الأطراف التي تدين لحكمها .

وهكذا نشأ في مستهل القرن السادس عشر القطر الجزائري مع نشأة العصر التاريخي الحديث في العالم<sup>(١)</sup> .

وسكان الجزائر قديما هم من جنس البحر الأبيض فى الشمال، والجنس الزنجى فى الجنوب . . . هاجر إليهم البربر حوالى الألف الرابع قبل الميلاد من الشرق الأدنى، وفى فجر التاريخ ازدادت الصلات التجارية بين سكان شمال إفريقيا وجيرانهم من سكان البحر المتوسط وتلت الهجرات التجارية الهجرات الاستعمارية، وما ترتب عنها من جلب العبيد .

ثم جاء العنصر العربى بشكل منظم بعد الفتح الإسلامى ليتم لهذه المنطقة خاصيتها البشرية، وبمرور الزمن زالت الفوارق البشرية بين أهل الشمال والجنوب، وبين سكان التل وسكان الصحراء، وبين السكان الأصليين والمهاجرين، وظهرت عادات متحدة وتقاليد واحدة ودين واحد ومستقبل واحد بين جميع المتساكنين . فلهذا لا يمكن أن نقول إن هناك فوارق بشرية ما زالت قائمة فى شمال إفريقيا عموما، ولا حواجز عنصرية، بل اندثرت الفوارق منذ زمن بعيد، أزالها المخالطة والمصاهرة رغم محاولة الاستعمار الفرنسى طيلة ١٣٢ سنة إذكاء نار الفتنة والشقاق بين العرب والبربر والزنوج حيث سلك سياسة « فرق تسد » غير أن سكان الجزائر من عرب وبربر وزنوج قد أدركوا هذه الخيل الاستعمارية وعرفوا أنه ليس هناك فرد واحد احتل فى القديم وحده منطقة محدودة من العالم ثم توالت إلى أن كوّن دولة معروفة باسمه الآن ولكنهم خليط من عناصر مهاجرة وحد بينها التاريخ<sup>(٢)</sup> .

ومنذ نحو ثلاثة عشر قرنا والبلاد الجزائرية بلاد إسلامية دينا، عربية لغة، وإذا كان يوجد فيها أقلية ضئيلة من أصحاب الديانات السماوية الأخرى فإن هذه الأقلية لم تكن

(١) هذه هى الجزائر - أحمد توفيق المدنى - ط النهضة المصرية ١٩٥٦ م .

(٢) جغرافية الجزائر - حلمى عبد القادر - ط الإنشاء - دمشق ١٩٦٨ م .

تزيد على ما كانت عليه في أي بلد إسلامي آخر، ظل أهل الكتاب محتفظين فيه بدينهم بعد الفتح الإسلامي أو التجئوا إليه ليجدوا في كنف المسلمين الراحة، ولكنهم كانوا منصهرين في مجموعة الأمة الإسلامية . . هكذا كان شأن الجزائر منذ قرون، ولا عبرة في ذلك لوجود أقلية كبيرة أو صغيرة بربرية في البلاد لأن هذه الأقلية سواء أكانت تعرف العربية إلى جانب البربرية أم لا تعرفها فإنها تعتبر نفسها عربية من حيث الجنسية؛ لأنها كانت تشترك مع الأكثرية العربية في المشاعر والعقائد، حتى لينعدم كل فارق بين الفئتين .

وقد ظل الجزائريون في العهد العثماني محتفظين بالصيغة العربية إلى حد بعيد؛ لأن السيطرة التركية لم تكن إلا سيطرة اسمية، ولم يكن يوجد في البلاد كلها إلا بضعة آلاف من الجنود وبضع مئات من الضباط العثمانيين، وكان اختلاط رجال الجيش بالسكان الأصليين قليلاً، وكانت لغة البلاد هي اللغة العربية، وبدليل أن صك الاستسلام كتب بالعربية ولم يكتب بالبربرية ولا بالتركية، على أنه لو كان كتب بالتركية لما نفى العروبة عن الجزائر لأن الوالي كان تركياً . . فكيف به وقد كتب بالعربية؟

وهذا دليل على أن الأتراك أنفسهم كانوا يندمجون بأهل البلاد يتعلمون لغتهم، ويلبسون لباسهم ويعيشون عيشتهم<sup>(١)</sup> .

وإذا كان الجزائريون قد احتفظوا بعروبتهم على الرغم من الاضطهاد الفرنسي، ولم يدوبوا في بوتقة المستعمرين الأوروبيين كما ذاب أهل الأمريكتين الشمالية والجنوبية، وأهل أستراليا في بوتقة السكسونيين والإسبان والبرتغاليين مثلاً، أو كما ذاب أهل الجزائر أنفسهم في بوتقة العرب الفاتحين، فالفضل في ذلك يرجع إلى الدين الإسلامي وحده الذي كان الجامعة الكبرى للأغلبية الساحقة من سكان البلاد . . ولعل وجود الأجنبي في الجزائر جعل الجزائريين أشد حرصاً على عروبتهم وإسلامهم من أي وقت مضى .

وبلغ عدد المسلمين في الجزائر في الستينيات أكثر من تسعة ملايين نسمة بحسب تقدير الفرنسيين أو إحصائياتهم، وربما كانوا أكثر من ذلك أيضاً . . ويقول الفرنسيون إنه لم يكن يوجد في الجزائر يوم استولوا عليها أكثر من مليوني نسمة، وقد يكون هذا صحيحاً ولكنه لا يفيد الفرنسيين في غايتهم التي يرمون إليها، وهي أن السكان زادوا

(١) الجزائر العربية أرض الكفاح د/ إحسان حقي - منشورات المكتب التجاري - بيروت - ١٩٦١ م .

بفضل عنايتهم بهم، والواقع أن العالم كله قد ازداد سكانه فى هذين القرنين زيادة كبيرة، وهو آخذ بالازدياد على نطاق واسع حتى فى البلاد المتأخرة، ولذلك نستطيع أن نضيف هذه الدعوى الفرنسية إلى دعاويهم الكثيرة التى لا تقوم على أساس علمى واقعى .

وهكذا فالمسلمون هم سكان البلاد الأصليون، وأصحابها الشرعيون عرف التاريخ منذ عهده الأول أصولهم وأنسابهم، وسجل لهم أمجادهم قبل الإسلام وبعده، والمسلمون الجزائريون عصبه واحدة هى عصبه الإسلام، وأمة واحدة هى أمة القرآن، وجماعة واحدة هى جماعة القومية الجزائرية، اعتنقوا الإسلام دينا منذ القرن الأول الهجرى بصفة إجماعية، واتخذوا العربية لسانا، والسنة المحمدية مذهباً، لا فرق فى ذلك بين سكان جبال الجزائر وسهولها ولجودها وصحرائها، ولطالما حاول المستعمرون وأنصار المستعمرين أن يحدثوا التفرقة بين المسلمين بإثارة النعرات القبلية العصبية والجنسية التى يحاربها الإسلام وتقاومها الوطنية فما نجح فى ذلك لا قليلاً ولا كثيراً .

وقامت الثورة الكبرى على الاستعمار ونظمه وأحكامه فإذا بالأمة الإسلامية الجزائرية تهبُّ عن بكرة أبيها مشاركة فى الثورة مؤيدة لها، ولربما كانت الجهات التى حاول الاستعمار إبعادها عن العروبة وصددها عن الإسلام أكثر الجهات إمعاناً فى الثورة، وإقداماً عليها .

أما إذا نظرنا إلى أصول المسلمين الجزائريين نظرة بحث علمى بحث رأيناهم ينحدرون من أصلين اثنين .

- \* الأصل الأمازيغى الذى أطلق عليه اللاتينيون ومن والاهم اسم البربر .
- \* والأصل العربى الوارد مع الفتوحات الإسلامية .

#### أولاً: العرب:

وهم الأغلبية العظمى من سكان القطر الجزائرى (٧ من ١٠) وقد استقرت أقدامهم فى بلاد المغرب العربى كله منذ أيام الفتح الإسلامى الأول وتغلغلوا بين السكان الأولين .

لكن الجند العربى الأول؛ جند الرواد لم يكن كثير العدد فبقيت أكبر أقسام البلاد على مازيغيتها إلى أن حدثت تلك الهجرة التاريخية الشهيرة هجرة قبائل بنى هلال



وبنى سليم من صحراء شرق النيل إلى المغرب العربي عام ٤٤٤ للهجرة، فتدفق سيلهم، وتكاثر عددهم وانتصبوا في سائر السهول والواحات، وأغلب الجبال، واختلطوا بالعنصر الأمازيغي المسلم اختلاطا وثيقا فتصاهر العنصران وامتزجا وصهرتهم بوتقة الإسلام والعروبة، فكانت منهم الشعب الجزائري العربي المسلم المجاهد في سبيل دينه وعرويته ووطنه. وكان الخليفة الفاطمي المستنصر يريد أن ينتقم من أمراء صنهاجة في المغرب العربي لأنهم خلعوا بيعته، وخطبوا باسم الخليفة العباسي فأمر أعراب الصحراء الشرقية المصرية بالاجتياز إلى أرض المغرب، وما كان يدور بخلده يومئذ أنه وطئ أقدام العروبة في هذه الأرض إلى الأبد، فرغم وقوع اضطراب سياسي واقتصادي في البلاد من جراء هذه الهجرة دام عددا من السنين فقد تمكن السكان الأقدمون من أمازيغ وعرب والسكان الجدد من بني هلال وبني سليم من الاختلاط والامتزاج، فتكونت الجامعة الإسلامية العربية على فلول العنصرية القديمة.

والعرب في القطر الجزائري يتسبون إلى هذه القبائل العربية الأصلية:

أثيج - جوشم - رباح - زغبة - معقل ، وكلهم من بني هلال بن عامر.

ثم قبائل : ديات - هيب - زغب - عوف ، وهم من بني سليم بن منصور.

والعرب اليوم في القطر الجزائري يتحلون بأرقى وأرفع ما في العادات والتقاليد العربية الكريمة: النجدة ، المروءة ، الكرم، الوفاء.

ولسانهم - وخاصة في الجهات التي لم تدنس باستقرار الاستعمار الفرنسي - فصيح بصفة مدهشة لم يختلط بأي كلمة دخلية، فهم يتكلمون لغة قريش، ويستعملون تراكيب القرآن الكريم، وراثه عن آبائهم وأمهاتهم لا تعلموا وتصنعا، وهذا شأن البادية الجزائرية كلها، وخاصة في النجود وفي الجنوب.

ثانيا: الأمازيغ (البربر):

هم أصل سكان المغرب العربي كافة وهم الذين اخترقوا عشرات القرون من تاريخه إلى أن وحد الله البلاد تحت راية الإسلام في دائرة العروبة.

وهل الأمازيغ الأحرار بعداء عن العرب، عُرباء عن العروبة الأولى؟

كلا فإن ابن خلدون مؤرخ البربر الأكبر عمدة تاريخ البلاد القديم والمعتز بأصله البربري - كما يبدو من تاريخه - يؤكد أن الأمازيغ أو البربر من أبناء مازيغ بن

كنعان بن حام، وأن أصلهم من جهات ما بين النهرين بأسيا، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب مارين بالبلاد المصرية، وقد أخذوا منها بعض الطقوس الدينية كعبادة (عمون) وآثارهم المنقوشة العتيقة ببعض جهات الجنوب تؤكد هذا.

ثم إن بنى كنعان من أهل فينيقيا قد اختلطوا بأزيغ اختلاطا وثيقا منذ سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد.

وإذا كانت لغة الفينيقيين عربية وتشبه إلى حد بعيد اللهجة العامية العربية المستعملة اليوم في الجزائر فقد استعمل البربر الأمازيغ تلك اللغة، وأصبحت لسان المعاملة والعلم بينهم قبل انبثاق فجر الإسلام بنحو ١٧٠٠ سنة، وأغلبية الأمازيغ المستقرين بالقطر الجزائر، والذين لم يندمجوا اندماجا تاما في العرب من قبائل البرانس، ومنها: صنهاجة - كتامة - مصمودة - لمطة.

والأمازيغي البربري في الجهات التي يسكنها بالبلاد الجزائرية يمتاز بالصلافة والشجاعة والتمسك بالرأى وعشق الحرية إلى درجة الهيام، وهو يسكن غالبا الجهات الجبلية الوعرة التي آوى إليها إثر الحروب الكبيرة التي اصطلى بناها منذ عهد روما، ويعيش فيها عيش الكد والعمل والإصرار، فيشترك الرجل والمرأة والصبي في الأعمال المرهقة للاحتفاظ بالحياة في بلاد الآباء والأجداد.

والأمازيغي البربري في جباله محافظ - مع إسلامه المتين - على تقاليد وعوائده، مضياف كريم رغم فاقته، لا يصبر على عار ولا يضيع عنده ثار.

والكتلة الأزيغية الكبرى في القطر الجزائري هي جبال جرجرة أو بلاد القبائل الكبرى وأهمها قبيلة (زواوة) وتقع شرق مدينة الجزائر موازية للبحر، ففي هذه الجبال المنيع التي صارعت الأمم وغالبت الدول وسجل التاريخ على فجاجها ومرتفعاتها أروع صور البطولة والنجدة. وما زال يعيش عدد كبير يحتفظون بنظام العائلة، ويدينون جميعا بالإسلام الخفيف، ولهم صلابة فيه، ويتكلم أكثرهم اللغة العربية إلى جانب اللغة المحلية، فليس فيهم من لا يتكلم العربية إلا أعداد قليلة، ورغم أن الاستعمار قد أصاب سكان هذه البلاد بنكبات فادحة واستحوذ على أجود أراضيهم الجبلية فقد حاول أن يفصل بينهم وبين العرب وأن يقطعهم من جسم العروبة والإسلام، فنشر بين ربوعهم التعليم الحكومي الفرنسي، وقاوم العربية مقاومة عنيفة، وحارب الإسلام حربا لا هوادة فيها، وأفسح الطريق أمام الإرساليات المسيحية التي تنادى بالنعرة

البربرية، وتدعو الناس جهاراً لمقاومة العربية والإسلام؛ لكي تتكون له في هذا القطر فئة من أهل البلاد لغتها الفرنسية ودينها المسيحية، ولكن أهل البلاد قاوموا وتصلبوا فباء الاستعمار بالفشل الذريع، فبفضل الدعوة الإسلامية الصادقة التي قام بها الشيوخ المسلمون قديماً، والنهضة الحديثة التي تولت أمرها جمعية علماء المسلمين، والبعث السياسي الذي تم على أيدي الأحزاب الوطنية الجزائرية خسر الاستعمار معركته، فإذا بالكتلة الأمازيغية البربرية تقف في صف الثورة الكبرى تحت راية الإسلام والعروبة والوطنية الجزائرية، وقد ذابت في ذلك كل الفروق، ولم يبق لكل أبناء الوطن من غاية إلا الاستقلال الوطني، ولم يبق لهم من عدو إلا الاستعمار الغاصب.

### الفتح العربي والدين الإسلامي

وجاء الإنقاذ من الشرق بواسطة الدين المحمدي ومجاهديه الميامين، وقد كانت الدنيا تنتظر نوراً جديداً فجاءها النور من مكة أم القرى، وكان المغرب على الأخص ينتظر نظاماً جديداً قوامه العدل والحرية والتساوي، فجاء النظام الجديد يضمن له سعادة الدنيا، ونعيم الآخرة. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات الآية ١٣].

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «الناس سواسية» ويقول سيدنا عمر -رضي الله تعالى عنه- خليفة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه -: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

كانت سنة ٦٦٧ للميلاد سنة إنقاذ لبلاد المغرب العربي حولت مجرى تاريخه إلى الأبد، ورمت به في اتجاه جديد، اتجه الحضارة الإسلامية العربية، فبرز في ذلك الميدان قويا عزيزا، وساهم بقسط وافر في إقامة دعائم تلك الحضارة الرفيعة الذرى.

جاء عبد الله بن سعد، وعبد الله بن الزبير فحاربا الروم وانتصرا، ثم جاء عقبة بن نافع لتوطيد أركان الفتح واصطدم بالقومية الوطنية الأمازيغية التي لم تكن تريد الخضوع لأحد، ف وقعت المعارك الطويلة التي استبسل فيها رواد الدين وطلائع المدنية، كما استبسل فيها أبطال الوطنية وأنصار الاستقلال الملتفون حول زعيمهم (الكاهنة) وكانت الغلبة في بادئ الأمر لها، وكان معقلها (جبل أوراس) الأشم.

ثم رأته لأول مرة في التاريخ - أن تسلك سياسة (الأرض المحترقة) فأمرت بإحراق القرى والمدن والمزارع والغابات كيلا يبقى للعرب مطمع في البلاد - لكن القائد حسان ابن نعمان أعاد الكرة على رأس أبطال العرب فدمر الكاهنة وجمعها ، وأفهم الأمازيغ الأحرار أن القادمين الجدد إنما يتخذون شعارهم من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [سورة النحل الآية ٩٠].

وأنهم ما جاءوا مستعمرين يريدون الأرض إنما جاءوا دعاة - يريدون الهداية . فانضم الجند الإسلامي يعتمد على الفرق الأمازيغية المسلمة ، بل لم ينقض على الفتح إلا أمد وجيز حتى كان (طارق بن زياد) الأمازيغي يسير إلى فتح بلاد الأندلس على رأس جند من خير ما عرف الإسلام من جند قوامه الأزيغيون (البربر) الذين حققوا بواسطة الإسلام تلك الآمال العظيمة التي حطمتها روما والتي بقيت تصارع الموت ، لكن الإسلام حقق الحرية والاستقلال ، وكان اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية وامتداد أطراف المملكة من تخوم الهند وسمرقند حتى أواسط فرنسا ، وبعد الأطراف عن مركز الخلافة بدمشق ثم ببغداد - سبباً في استقلال الكثير من البلاد الإسلامية بأمر نفسه وتأسيسه ممالك محلية تتبع الخلافة في بعض الأحيان اسما وتخرج عنها أحيانا أخرى .

ومما يسجله التاريخ لأمة المغرب الأوسط - الأمة الجزائرية - أنها كانت أول أمة حققت استقلالها ضمن دائرة الإسلام ، فأول مملكة إسلامية مستقلة منظمة إنما نشأت بمدينة تيهرت (على مقربة من تيارهت الحالية) سنة ١٦٩ للهجرة أسسها القاضي عبد الرحمن بن رستم فانضمت لها كل أرجاء البلاد الجزائرية الحالية (ما عدا بعض جهات قليلة بالجنوب والشرق) .

وبهذا سبق الجزائريون بتأسيس دولتهم الرستمية المصريين الذين شادوا ملك بني طولون ، والمراكشيين الذين أقاموا دولة الأدارسة . ولقد زاحمت المدينتان الجزائريتان تلمسان وبجاية من قبلها القاهرة وبغداد وقرطبة ، واجتمع فيهما من رجال الدين والعلم والأدب ما لم يجتمع مثله أبدا في مدن القطر الجزائري ، وجاءت فيهما وفود العلم والشعر من جهات العالم العربي كله .

وجاء المستعمر الغاصب يحارب العروبة والإسلام في القطر الجزائري ، حتى أصبح الدين الإسلامي - على وجه الخصوص - غريبا في داره ممتهدنا بين أهله وذويه منهوبا في

أوقافه ومساجده ومؤسساته ، واعتبر - الدين - ملكا خاصا من ممتلكات الدولة الاستعمارية تتصرف فيه كما تشاء .

هذا ما لا يعلمه الكثير من الناس ، وهذا ما يوشك ألا يصدقه الكثير من الناس . . لكن هذا هو الحق الصراح دون مبالغة أو تهويل .

إن أول ضربة للاستعمار في قطر الجزائر بعد تقويض أسس الدولة الجزائرية هي تلك الضربة التي ألحق بها الأوقاف الإسلامية بممتلكات الدولة عام ١٨٣٠ للميلاد، فكل المساجد والمؤسسات الإسلامية قد أصبحت ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة تفعل بها ما تشاء ، هدمت منها على هذه القاعدة ما هدمت ، ثم هي تسمح للمسلمين بإقامة شعائر دينهم في البقعة الباقية منها ، إنما لا يقع ذلك - واتجهوا جيدا لهذا - إلا بواسطة موظفيها ورجالها ومن ينتدبهم الاستعمار للقيام بها .

فرجال الإفتاء وأئمة المساجد وسدنتها وقراء القرآن فيها ومؤذنها كل أولئك من الموظفين الذين يتقاضون أجورهم من الخزينة الفرنسية ، ولا يتسلمون وظائفهم إلا متى قدموا للاستعمار ما يوجب رضاه ، ولا يبقون بها إلا ماداموا عاملين على مرضاته .

يؤكد ذلك ما قاله أحد كبار موظفي الولاية العامة الجزائرية وهو (مسيو برك) في مقال نشر بعد موته ، وهاك مانصه :

«لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامي إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتي أو الإمام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس ، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أى رقى إلا إذا أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصا منقطع النظير .»

«وأرى أن كل كلمة تضاف على هذه الجملة التصويرية البليغة إنما تنقص من قيمتها» .

ولقد طالب المسلمون جميعا - وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - بتنفيذ القوانين الفرنسية نفسها مثل قانون عام ١٩٠٥ الذي يقتضى فصل الدين عن الدولة ، وقيام كل طائفة دينية بأمر دينها باستقلال . لكن بينما يستقل النصارى واليهود بأمر دينهم ، منذ ذلك العهد ، رأينا الاستعمار الفرنسى يرفض رفضا باتا إلى يوم إعلان الثورة ، ورغم كل القوانين والوعود - إرجاع الدين الإسلامى بمساجده وأوقافه

وموظفيه إلى جماعة المسلمين، حتى اضطر المسلمون لمقاطعة المساجد الحكومية الفرنسية وأخذوا يؤسسون لأنفسهم مساجد (حررة) قامت الأمة بنفقات بنائها الضخمة، وهي تتعهدا وترعاها بما يجب لمساجد الإسلام من رعاية واحترام، ومنها مساجد فخمة تعد تحفا من الفن المعماري الإسلامي، وبلغت تكاليف بعضها وقت إنشائها نحو ٥٠ مليون فرنك فرنسي.

وهكذا قاومت الأمة الاستعمار في المضمار العلمي وفي الميدان الديني، كما قاومته في حلبة السياسة إلى أن قامت الثورة الكبرى التي حق الله بها الحق، وأبطل الباطل. إن الباطل كان زهوقا.

### التعليم العربي واللغة العربية

استولى الفرنسيون على الجزائر فظنوا أنهم استولوا على العقول والعواطف والشعور، وعملوا منذ اليوم الأول - على الرغم من التطورات الكثيرة التي طرأت على بلاد الجزائر - جاهدين لكي يقضوا على اللغة العربية، وسلكوا لهذه الغاية سبيلين: سلبيًا وإيجابيًا.

أ- أما السلبي؛ فإنهم أهملوا تعليم اللغة العربية في مدارس البلاد وجعلوا المدارس كلها فرنسية بحيث لو تسنى جزائري أن يدخل هذه المدارس لما خرج منها إلا فرنسيًا.

ب- والسبيل الإيجابي هي أنهم عملوا بكل قواهم لمحاربة اللغة العربية، وإحياء الرطانة البربرية.

غير أن هذا وذاك لم ينفعاهم شيئًا بل قام المسلمون وعلماء الدين والجمعيات الإسلامية وأسسوا المدارس الأهلية لتعليم اللغة العربية، وهكذا استطاع الجزائريون العرب أن ينقذوا أنفسهم من أشراك الجهالة التي نصبها لهم الفرنسيون، وأن يحافظوا على لغتهم ودينهم على الرغم من أن هذه المدارس العربية والإسلامية لم تكن لتفي بالغرض لأن تعليمها كان ناقصًا وقاصرًا على تعليم اللغة والدين فقط، ولم يكن من السهل قط أن يحصل عربي على رخصة بفتح مدرسة، بل إن مجرد المطالبة بذلك كان يعد ثورة ثم إن الحكومة إذا اضطرت لمنح رخصة بفتح كتاب اشترطت على القائمين عليه، أن يتبعوا تعليمات الحكومة في كل صغيرة وكبيرة، هذا على الرغم من أنها

لاتساعد هذه المدارس بقليل ولا بكثير بينما تعطى من أموال الأوقاف الإسلامية للكنائس والمدارس اللاتينية بلا حساب .

ثم لما أخذت الحركة العربية الوطنية تقوى وتشتد وأصبح الجزائريون لا يرضون عن عروبتهم بديلا ، وقامت ثورات وتعالت صيحات وصرخات من كل جانب . لم تر الحكومة الفرنسية بدآ من أن تجيب الجزائريين إلى مطالبهم إلى حد ما ، وأن تبادر وتتولى التعليم العربى لكى لا يفلت من يدها ويسير فى طريقه السوى ، فأنشأت بعض المدارس التى تدرس العربية مع الفرنسية ، ولاسيما مدرسة لتخريج القضاة والمفتين والعدول والمدرسين والأئمة والمترجمين الرسميين ، والسبب فى إنشاء هذه المدرسة هو مارأته من فرار - الجزائريين بحيل كثيرة إلى مصر وسوريا وتونس للدراسة فى مدارسها الدينية فخشيت - وهى على حق فى خشيتها - أن يعود هؤلاء الطلاب وهم لا يحملون فى صدورهم علوم الدين واللغة فقط بل يحملون أيضا نارا محرقة على رؤوس المستعمرين والاستعمار .

«ولقد ناضل الجزائريون طويلا ؛ ومايزالون فى سبيل الحفاظ على لغتهم العربية ونشرها والتعبير بها فى ثقافة عربية جزائرية ، وما تزال قضية التعريب هى جوهر القضية الوطنية لأنها جوهر معركة استعادة الشخصية العربية حتى بعد جلاء المستعمرين الفرنسيين ، مع أن غياب الثقافة الجزائرية أيام الاستعمار لم تفقد الشعب الجزائرى لغته كلية ، ورغم أن الفيلسوف الألمانى «فيخته» يقول : إن اللغة تسير جنبا إلى جنب مع الاستقلال ، فالشعب الذى يفقد الاستقلال يفقد أيضا لغته بصورة آلية ، وحتى إذا لم يفقدها فلا يمكن أن يكون له أدب ، كما أن الذى يفقد لغته ينتهى به الأمر إلى الدوبان» .

فالذى حدث فى الجزائر أن الاستقلال - وإن فُقدَ أكثر من مائة وثلاثين عاما - فقد بقيت اللغة تقاوم مع تسليمتنا بأنه رغم الحصول على الاستقلال السياسى فما يزال جوهره بصدده أن يتحقق عند انتصار العربية انتصاراً تاماً (١) .

ولعل أبرز مثال على صمود اللغة العربية وحمايتها لقومية الشعب يوم حاول المستعمرون منذ قدومهم أرض الجزائر فى عام ١٨٣٠ للميلاد إفناء اللغة العربية ،

---

(١) محاضرات عن اللغة والشخصية فى حياة الأم - مولود قاسم - الحلقة الأولى - جريدة الشعب الجزائرية يونيو ١٩٦٨ م .

وذلك بأن أغلقوا المدارس والمساجد وفرضوا لغتهم في كل رسائل التبادل والتعامل، وكادوا أن يبلغوا بغيتهم لولا عوامل ثلاثة هي :

١ - أنهم بعنصريتهم ظلوا لا يختلطون بالشعب ويتعالون عليه، يستغلونه ويستبدون به فظلت معهم لغتهم لم تغز إلا المدن ولجأ منها الريف والبادية .

٢ - أنهم لحرصهم على إبقاء الشعب في أدنى درجات الأمية؛ قصروا التعليم على أتباعهم وقلة قليلة من أبناء الجزائر، وبهذا ظل الشعب الأمي يتكلم العربية وإن لم يعرف كيف يكتبها ويقرؤها .

ج - أن الإسلام ظل حصن اللغة العربية في قلوب الجزائريين يارسون به شعائر صلاتهم ويتعلمون عن طريقه لغتهم، ومن هنا قام العلماء بالعبء الأكبر في المحافظة على اللغة طوال سنوات الاستعمار .

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأن ما بذله المستعمرون في سبيل إفناء اللغة العربية - وعلى وجه التحديد في حرمان هذه اللغة من طليعة مثقفة تكتب بها فتشكل عن طريقها ثقافة عربية جزائرية - قد أدى إلى غياب هذه الثقافة وبالتالي إلى غياب الوجه المصقول للغة ودعاة تطورها الطبيعي، ومن البدهي أن اكتشاف الكنوز الثقافية التي تزخر بها الشخصية الوطنية تتوقف قبل كل شيء على اعتماد الإدارة الأصلح للتقيد بها، وهي اللغة الأكثر التصاقا بالشعب والأشد قربا من ضميره ووجدانه والأكثر انسجاما مع مقدماته وقيمه الحضارية؛ لأن اعتماد لغة أجنبية للتعبير عن الشخصية الوطنية يكون مثل الاعتماد على الخشب في نقل الكهرباء .

ولقد سجلت اللغة الوطنية انتشاراً كبيراً من خلال مرحلة الكفاح المسلح، ولم يكن ذلك مجرد صدفة لأن الكفاح المسلح تطور بين أحضان الشعب، فكانت اللغة الوطنية هي الأداة الوحيدة التي يمكن أن تعتمد في التخاطب والتعامل بين الأفراد، ولم تتوقف الثورة المسلحة أو تتعثر في يوم من الأيام بسبب اعتمادها على اللغة الوطنية في ميدان الكفاح (١) .

وفي هذا الصدد يقول العالم الجزائري الكبير، وزميل كفاح ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمي : «اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في

---

(١) الملتقى الثقافي الأول بالجزائر مايو ١٩٦٨ م.  
من كلمة السيد / محمد الشريف مساعدي - مسئول التوجيه والأخبار بحزب جبهة التحرير الوطني الجزائري - آنذاك .



دارها وبين حماتها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي ، مشتدة الأواخي مع الحاضر ، طويلة الأفيان في المستقبل ، ممتدة مع الماضي ؛ لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على السنة الفاتحين ترحل برحيلهم ، وتقيم بإقامتهم ، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد ، وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح ، ومن ذلك بدأت تتغلغل في النفوس ، وتنسأغ في الألسنة واللهوات ، وتنساب بين الشفاه والأفواه يزيدا طيبا وعدوية أن القرآن الكريم بها يتلى ، وأن الصلوات بها تبدأ وتختتم .

فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس والشواعر ، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا ، فأصبحت لغة دين ودنيا معا ، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته<sup>(١)</sup> .

---

(١) عبون الأخبار / ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ص ٢٢١ - الشيخ البشير الإبراهيمي .



## الباب الثاني

الشيخ عبد الحميد بن باديس

- مولده ونشأته.
- رحلة ابن باديس إلى الحجاز وأقطار المشرق العربي.
- العوامل التي أثرت في تكوين شخصية ابن باديس.
- مجهودات ابن باديس وإمكاناته.
- وفاة ابن باديس.



## الشيخ عبد الحميد بن باديس

### مولده ونشأته

ولد عبد الحميد بن باديس عام (١٣٠٨ هـ - ١٣٥٩ هـ = ١٨٨٩ م - ١٩٤٠ م) في مدينة قسنطينة بشرق الجزائر حيث سكنت القبائل العربية القادمة من المشرق في مسيرتها بأراضي المغرب، إلى جانب سكانها في الجنوب على حافة الصحراء أو في واحاتها، وحيث غلب على السكان الأصليين من ذوى الأصول غير العربية في منطقة جبال الأوراس الاستعراب فضلا عن اعتناق الإسلام.

وعبد الحميد بن باديس كما يظهر من اسمه ينتمى إلى سلالة ترتقى في أصولها إلى المعز بن باديس الصنهاجى (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ = ١٠١٥ - ١٠٦١ م) آخر سلالة دولة بنى زيرى فى القيروان، وهم الذين ولاهم الفاطميون حكم إفريقية بعد استقرارهم فى مصر، وقد ناصر السنة وتحول عن التشيع.

وكان عبد الحميد بن باديس يردف اسمه بلقب (الصنهاجى) فى توقيعه مقالاته المنشورة خاصة بالصحف.

حفظ ابن باديس القرآن الكريم على الشيخ محمد المداسى، وأتم حفظه فى السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤدّب بذكائه وسيرته الطيبة قدمه ليصلى بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة فى الجامع الكبير.

وفى سنة ١٩٠٣ م دخل الشاب فى طور جديد من أطوار دراسته، فخيره والده بين أن يسلك طريق أجداده أو طريقا آخر، فاختار طريق سلفه وهو طريق العلم والجهاد فانتخب له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوى المعارف الإسلامية والعربية، وهو الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسى الذى كان منتميا إلى الطريقة التيجانية سالكا منهجها. فأخذ يعلمه بجامع سيدى محمد النجار بقسنطينة مبادئ العربية والمعارف الإسلامية ويوجهه وجهة علمية أخلاقية.

وكان ابن باديس يعترف له بالفضل ، وبما كان له من تأثير في نفسه .

ثم هاجر حمدان لونيسى إلى المدينة المنورة مثيراً من الاستعمار الفرنسى وسلطته ، مجاوراً بها مدرساً للحديث إلى أن توفاه الله ، وحين عزم على الهجرة تعلق لدى السلطات الاستعمارية بأنه يسافر لمعالجة بصره ، ورغب ابن باديس أن يسافر معه ، ولكن أباه منعه وصرفه عن ذلك .

و حين بلغ الخامسة عشرة من عمره ( ١٩٠٤ م ) تزوجه والده وأنجب ولدا سماه (عبده إسماعيل) توفى وعمره سبعة عشر عاماً .

ثم جاء دور الرحلة في حياة الشاب ابن باديس ، فسافر إلى مدينة تونس في سنة ١٩٠٨ م وسنه إذ ذاك تسعة عشر عاماً وانتسب إلى جامعة الزيتونة ، وعرف في دراسته بالجد والنشاط ، فأخذ يتلقى الثقافة الإسلامية العربية ، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة أمثال العلامة المفكر الصدر محمد النخلى القيروانى المتوفى عام ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .

ومن أساتذة ابن باديس أيضاً الشيخ الخضر بن الحسين<sup>(١)</sup> الذى درّس بجامع الزيتونة وحضر عليه دروساً في المنطق من كتاب «التهديب» ، كما أخذ عنه دروساً في التفسير في أوائل كتاب البيضاوى . وغير الشيخ الخضر عدد كبير من أجلة العلماء الذين درّسوا بجامع الزيتونة .

وتخرج ابن باديس بشهادة التطويح في سنة ١٩١١ - ١٩١٢ م وعمره ثلاث وعشرون سنة ، وعلم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت ، ولا شك فإن البيئتين الثقافية والاجتماعية اللتين احتك بهما ، والعلاقات التى كانت له مع بعض العلماء أثرتا في تكوينه وشخصيته واتجاهه العقلى ، وأكثر ما كان اتصاله قويا وعميقا ومؤثراً إنما كان بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، والشيخ محمد النخلى اللذين يعتبران زعمى النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية في الحاضرة التونسية لأنهما كانا من أنصار أفكار جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده الإصلاحية<sup>(٢)</sup> .

(١) أصله من طولقة جنوب الجزائر بعد مدينة بسكرة .

(٢) آثار ابن باديس ج ١ - عمار الطالبي - دار مكتبة الشركة الجزائرية ط ١٩٦٨ م .

وعاد ابن باديس إلى الجزائر عام (١٣٣١هـ - ١٩١٢م) وانتصب بمفرده في أول الأمر يعلم الطلاب ويثقف العامة ويخطب ويكتب في الصحف، ويوثق صلاته بذوى المكانة والعلم والرأى على مر السنوات، حتى استطاع أن يؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م) وقد حاول وأد تلك الجهود الدائبة في مستهل قيامها المفتى المولود بن موهوب الذي سعى لمنعه من التدريس بالجامع الكبير، ولكن تمكن والد عبد الحميد بمكانته ومساغيه من أن يستصدر إذنا لولده بالتعليم فى الجامع الأخضر بقسنطينة، وشرع يدرس به عام (١٣٣٢هـ - ١٩١٣م) ولم تكن السلطة الاستعمارية تتوقع أن ينجم عن ذلك الإذن، ما سببه ابن باديس من أخطار، وهكذا أعانت مكانة أسرة ابن باديس الاجتماعية على أن يتحرر من الحاجة للتوظيف لدى السلطة الاستعمارية، وأن يخصص حياته لدعوته وجهوده الإصلاحية الكبرى للحفاظ على الشخصية الإسلامية العربية للشعب الجزائرى وتقويمها وتنميتها<sup>(١)</sup>.

#### رحلة ابن باديس إلى الحجاز وأقطار المشرق العربى

ولما كان الحج فريضة على كل مسلم - إن استطاع إليه سبيلا - قام ابن باديس (١٣٣٠هـ - ١٩١٢م) برحلته إلى الأقطار الحجازية، وهناك التقى بالعلماء ومفكرى العالم الإسلامى، وسعى إلى شيخه حمدان لونيسى الذى كان قد هاجر إلى الحجاز فراراً من اضطهاد السلطة له، وعرض على تلميذه عبد الحميد أن يبقى هناك مقيماً مثله، كما التقى هناك بالشيخ البشير الإبراهيمى، وربطت بينهما صداقة قوية إذ لازم عبد الحميد البشير طيلة ثلاثة أشهر قضياها فى دراسة أوضاع وطنهما الذى تردى أمام الوطأة الاستعمارية عليه، كما أخذوا فى دراسة كيفية انتشار ووطنهما من كبوته، وقد أثرت صداقتهم القوية فيما بعد الجهود الإصلاحية لجمعية العلماء، فقد خططا معا من أجل إخراجها إلى حيز الوجود، فى الوقت الذى زادت فيه الوطأة الاستعمارية على بلادهما، كما التقى فى المدينة المنورة بالشيخ حسين أحمد الهندى الذى استشاره فى أمر أستاذه لونيسى، ولكن الشيخ الهندى أشار عليه بالرجوع إلى بلاده حيث تستفيد الجزائر من علمه وعمله.

---

(١) من تاريخ الحركات الإسلامية المعاصرة - عبد الحميد بن باديس - رائد الحركة الإسلامية فى الجزائر المعاصرة - د / محمد فتحى عثمان - دار القلم الكويت ١٩٨٧م.

وقبل عودته إلى الجزائر زار سوريا ولبنان واجتمع هناك برجال العلم والأدب والفكر .

كما زار الأزهر الشريف بمصر ووقف على أساليب الدراسة فيه ، كما زار الشيخ محمد بخيت المطيعي الذي حمل إليه كتاب توصية له من شيخه حمدان الونيسي الذي نعته الشيخ بخيت بأنه رجل عظيم .

وبهذا تكون قد انتهت المرحلة الأولى لتكوين فكر بن باديس ، لبدأ بعدها أهم مرحلة وأصعبها ، وهي مرحلة الإصلاح والنهوض بأمة الجزائر ، وتعليم أبنائها ، وخاصة عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣١م وأصبح رئيسا لها .

ولما أسس المؤتمر الإسلامي الجزائري عام ١٩٣٦ م كان ابن باديس قد انضم إليه في حذر ، وسافر مع وفد من المؤتمر إلى باريس في ١٨ يوليو من عام ١٩٣٦م لعرض بعض المطالب ، لكن الوفد أخفق في مهمته رغم أنه عرّف بقضيته بعض الشيء ، سواء في الأوساط الحزبية أو الصحافية الفرنسية .

وفي هذه الفترة الحافلة بالأحداث جاء النشيد الذي أنشأه ابن باديس ، والذي يحمل ما في داخل نفسه من آمال نحو وطنه الجزائر المسلم ، ومما يقول فيه :

شمع الجزائر مسلم	وإلى العسروبة يتسب
من قال حاد عن أصله	أو قد مات فقد كذب
أو رام إدمساجسا له	رام المحسبال من الطلب
يا نشء أنت رجاءونا	ويك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها	وخض الخطوب ولا تهب
فإذا أهلكت فصيحتي	تحسبا الجزائر والعرب

وعندما كانت بوادر الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق وأخذت أيام الحرب تقترب لم يوافق ابن باديس على إرسال برقية باسم جمعية العلماء - كما اقترح البعض - لمساندة فرنسا ، وهو موقف شجاع يدل على صمود صاحبه في الحق ووطنيته الصادقة .



## العوامل التي أثرت في تكوين شخصية ابن باديس

\* تأثر ابن باديس بالحركة الإصلاحية لجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده واقتفى أثرهما، وسلك طريق الشيخ محمد عبده فى التربية والتعليم، والإصلاح الدينى والإصلاح اللغوى، وأعجب بحركة «المنار» والشيخ رشيد رضا، وبعض تلاميذه يقولون : إنه سمع من الشيخ محمد عبده حينما زار الجزائر، ودرس بها بعض الدروس، حين عودته من المنفى فى باريس .

\* تأثر بن باديس بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد أمضى عبد الحميد الجزء الأكبر من حياته يتعلم القرآن الكريم ويفسره للناس فى الجامع الأخضر بقسنطينة حتى أتم تفسيره ودراسته فى خمسة وعشرين عاما .

ويعد ابن باديس ثانى شخصية تختم تفسير القرآن الكريم فى الجزائر بعد أبى عبد الله التلمسانى فى المائة الثامنة للهجرة رغم مشاغله التعليمية الكبيرة، وأيضا الصحفية والاجتماعية التى منعتة من تسجيل كتابه، كما لم تشأ إرادة المولى - عز وجل - أن تهدى الناس إلى من يسجل هذا التفسير كتابة نيابة عنه فى أثناء الدرس وينشره على الناس .

وأكد لنا ابن باديس عوامل تكوين شخصيته فى كلمة ألقاها بمناسبة ختم القرآن الكريم<sup>(١)</sup> .

### العامل الأول :

تكوينه من الناحيتين العملية والعلمية وتوجيهه هذه الوجة يعود إلى أسرته، وخصوصا أباه الذى رباه ووجهه وجهة أخلاقية وعلمية، وحماه من المكاره صغيرا وكبيرا - على حد تعبيره - وكان أبوه من ذوى الفضل والخلق الإسلامى، ومن حملة القرآن الكريم، ولا يخفى ما لتأثير الأسرة فى شخصية الطفل من أهمية بالغة .

### والعامل الثانى :

يرجع إلى بيئته الدراسية وتأثير المربين من المعلمين والشيخوخ الذين نموا استعداداه وتعهده بالتوجيه والتكوين، وابن باديس يطيب له أن يذكر لنا فضل أساتذته عليه فى تخطيط مناهج العمل فى الحياة قال : « وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ فى تربيتى وفى حياتى العلمية . . . »

---

(١) آثار ابن باديس ج١ باب التفسير - عمار الطالبى دار مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر ط ١٩٦٨ م .

حمدان الوئيسى القسنطينى ، وثانيهما الشيخ محمد النخلى المدرس بجامع الزيتونة المعمور، رحمهما الله .

#### العامل الثالث :

وفيه لم ينس الشيخ عبد الحميد أن يبين لنا عاملاً آخر من أهم العوامل وهو الشعب الجزائرى ، وما ينطوى عليه من أصول الكمال ، واستعدادات عظيمة للخير ، وهو ما عمل على تنميته والنضال من أجل تغليبه على جوانب النقص وعوامل السكون .  
ويصف ابن باديس الأمة الجزائرية بأنها أمة معوانة على الخير منطوية على استعدادات الكمال ، وأنها ذات نسب عريق فى المحامد والفضائل .

#### العامل الرابع :

ثم يبين لنا ابن باديس عاملاً آخر ، وهم زملاؤه من العلماء الأفاضل الذين ساعدوه منذ فجر النهضة وشدوا ساعده ، فقوى بهم زناده ، وسطع لمجمه أمثال الشهيد الشيخ العربى التبسى الذى اختطفه المستعمرون الفرنسيون فى عام ١٩٥٧م فى أثناء الثورة وغاب عن الوجود من ذلك التاريخ والشيخ المبارك الميلى والشيخ البشير الإبراهيمى المتوفى عام ١٩٦٥م وغيرهم .

#### العامل الخامس والأخير :

وهو عامل يفوق جميع العوامل الأخرى والذى كرس له ربع قرن من حياته ، وقد سبقت الإشارة إليه ، وهو القرآن الكريم الذى صاغ نفسه ، وهز كيانه ، واستولى على قلبه ، فاستوحاه فى منهجه طوال حياته ، وترسّم خطاه فى دعوته ، وناجاه ليله ونهاره يستلهمه ويسترشده ويتأمله ، فيعب منه ويستمد علاج أمراض النفوس وأدوائها .  
إن شخصية ابن باديس غنية ومعبرة عن أزمة المجتمع الإسلامى لا تماثلها إلا شخصية جمال الدين الأفغانى فى ثرائها ، وشمولها ، وجرأتها ، وتعبيرها عن جميع جوانب المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والدينية والعلمية والسياسية التى يتخبط فيها العالم الإسلامى .

#### جهود ابن باديس وإمكاناته

ابن باديس مدرس ماهر ، وكاتب ممتع مهذب فى كتاباته ، وهو أيضاً فقيه من الطراز الأول ، خبير بمذهب مالك ، متفقه على غيره من أصحاب المذاهب ، يمتنع التعصب للمذهب معين وله فتاوى عظيمة تحس منها أنه إهاب ملىء علماً منظماً .

وهو أيضاً مفسر ممتاز له استقلالته فى الفهم والرأى ، يقرأ التفاسير ثم يجعل من عقله مصفاة لها ، فلا يخرج منها إلا ما صح ونفع ، ولاءم العصر وصدق الخبر ، مع حسن عرض ، واستنباط واع .

وهو مرب من الطراز الأول أسس المدارس الابتدائية الحرة العربية فى طول البلاد وعرضها ، ودعا إلى تعليم المرأة الجزائرية وأخذ بيد تلاميذه وأبنائه ، وعين النابهين منهم فى المدارس المذكورة بأجر ضئيل يفى أولاً بضرورات الحياة ويحث المواطنين على احترامهم ومساعدتهم ، وكان لوالده فضل كبير فى مساعدته للوصول إلى ما أراد لمواطنيه من آمال .

وعمل ابن باديس على تنقية الدين من البدع والخرافات والأباطيل ، وحمل على البدع حملة شعواء ، لم تأخذه فى الحق لومة لائم حتى عاد للدين صفاؤه ونقاؤه ، وعاد لأبناء الجزائر هويتهم الوطنية العربية الإسلامية .

وعمل ابن باديس على إرسال طلابه إلى الأزهر الشريف وإلى جامعة الزيتونة ، وأيضاً إلى جامعة القرويين فى المغرب ، فعادوا علماء عاملين فى خدمة أبناء الجزائر كلها .

ولعل من أبرز أعمال ابن باديس إتمامه تفسير القرآن الكريم ، فقد أتم الشيخ تفسيره فى عام ١٩٢٨م باحتفال مهيب بدأ فى مدينة قسنطينة وانتهى فى كل مدن الجزائر ، وبدأ فى التفسير قبل ذلك بسنين ، إذ كان يلقيه على تلامذته فى الجامع الأخضر ، أو ينشره فى مجلته - الشهاب - فى باب مجالس التذكير أو فى صفحته الأخرى ، حتى أتمه فى العام المشار إليه سابقاً .

يقول الدكتور الطاهر مكى الذى كان يعمل أستاذاً بجامعة الجزائر عن هذا العمل العظيم :

« كان مذهب الشيخ الإمام يقوم على محاولة إحياء القرآن الكريم فى قلوب مسلمى الجزائر حتى يبعثهم إلى الحياة بدورهم ، وإحياء القرآن الكريم يكون بتفسيره وفقاً لمنهج السلف ، وبذلك تخلص العقائد من الأوهام والأباطيل التى شوهتها ، وجعلت الدين يبدو فى نظر كثير من المؤمنين كما لو كان مضاداً للعقل ، وكان ملماً بأساليب المفسرين لما يدخلونه من تأويلات جدلية مذهبية فى كلام الله ، حتى ضاق صدره بسبب الخلاف فيما لا اختلاف فيه ، فذاكر يوماً الشيخ النخيلى فيما يجده فى نفسه من التبرم والقلق ،

فقال له : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة ، وهذه الأقوال المختلفة والآراء المضطربة ؛ ليستقط الساقط ، ويبقى الصحيح وتستريح . وقد التزم الشيخ بهذا المنهج ، وعلى هدى منه فسر القرآن الكريم كله .

وابن باديس محدث بصير وأديب ذواقة ، يعشق الأديبين القديم والحديث وينقدهما ، ويعطى لطلابه وزائريه زبدة ماقرأ ، ويوازن بين شعر وشعر ، وينشر الملح والطرائف . وله باب فى الشهاب بعنوان : «من أحسن القصص والأدب» . جمع فيه بين كل طريف وظريف .

وهو صحفى وقور هادئ رزين ، يختار الموضوع ويحدد المشكلة ويصف الدواء ، ويهتم بمصالح المسلمين فى جميع أنحاء الدنيا .

أصدر المجلات التالية : المتقد - السنة - الصراط - الشريعة - البصائر ، كما أنشأ الشهاب وكان قويا فى الحق ولم يطق الاستعمار ذلك ؛ فعطل كل صحيفة ، وبقيت الشهاب طويلا حتى جاءت الحرب العالمية الثانية .

ولما اندلعت الحرب فرضت الرقابة على ابن باديس ، ومنع من مغادرة مدينة قسنطينة .

ومن أبرز مؤلفات ابن باديس :

١ - تفسير ابن باديس فى مجالس التذكير .

٢ - من الهدى النبوى .

٣ - رجال السلف ونساؤه .

٤ - عقيدة التوحيد من القرآن والسنة .

٥ - أحسن القصص .

٦ - رسالة فى الأصول .

٧ - مجموعة كبيرة من المقالات السياسية والاجتماعية .

٨ - مجموعة خطب وفتاوى .

هذه الأعمال بعضها طبع بالفعل والبعض الآخر لم يطبع بعد .

ولعل القارئ العربى المسلم يستطيع فى يوم من الأيام أن يقف على كل مؤلفات

الشيخ الجليل عبد الحميد بن باديس؛ لما لها من أهمية قصوى في تاريخ دعوة الإصلاح بالوطن الجزائري (١)، (٢).

### وهة ابن باديس

بعد أن أثمرت دعوة ابن باديس في الجزائر والمغرب العربي، وأنت أكلها، وزكت وأينعت وحولت وجه التاريخ الجزائري وطنه بتعاليمه النيرة - يموت ميثة الأبطال المجاهدين المصلحين بين كتبه وتلاميذه في ١٦ من إبريل عام ١٩٤٠م وذكراه باقية خالدة بقاء وخلود التعاليم الصالحة في المجتمع الصالح، وكتب على قبره مايلي:

« الله أكبر هنا يرقد العلامة الجليل الأستاذ الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة العربية في الجزائر وزعيمها المقدم - توفي مساء الثلاثاء ٨ ربيع الأول - ١٦ إبريل سنة ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م رحمه الله ورضى عنه .

وعلى القبر أيضاً هذه الأبيات من الشعر:

ياقبر طبت وطاب فيك عبير	هل أنت بالضيف العزيز خبير
هذا ابن باديس الإمام المرتضى	عبد الحميد إلى حماك بصير
العالم الفذ الذي لعلومه	صيت بأطراف البلاد كبير
بعث الجزائر بعد طول سباتها	فالشعب فيها بالحياة بصير
وقضى بها خمسين عاما كلها	خير لكل المسلمين وخير
ومضى إليك نخصه بثنائها	وإليه من بين الرجال تشير
عبد الحميد لعل ذكرك خالد	ولعل نزلك الجنة حرير
ولعل غرسك في القرائح مثمر	ولعل ريك للعقول منير
لا ينقضي حزن عليك مجرد	وأسن له بين الضلوع سمير

(١) انظر عبد الحميد بن باديس - رجل الإصلاح والتربية - عمر بن قنية - المركز الوطني للنشر والتوزيع الجزائر ط ١٩٧٤م.

(٢) كتاب آثار بن باديس ج١ إعداد وتصنيف عمار الطالبي - ط الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر؛ ط الأولى ١٩٦٨م.

نم هادئاً فالشعب بك راشد  
لا تخش صنيعه ما تركت لنا سدى  
يختط نهجك فى الهدى ويسير  
فالوارثون لما تركت كشيير  
نفحتك من نفحات ربك نفحة  
وسقاك غيث من رضاه غزير

وحقا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . [سورة الأحزاب الآية ٢٣].

## الباب الثالث

### دراسة وتطبيق

- ابن باديس الخطيب.
- ابن باديس المصلح والري.
- ابن باديس الصحافي والجهاد السياسي.





## دراسة وتطبيق

دراسة جيدة واعية مفيدة تناولت «نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر» خلال الفترة من ١٩٢٥ - ١٩٥٤ م قدمها للمكتبة العربية الدكتور عبد الملك مرتاض، كان لابن باديس جانب منها . . . هذا الرجل الذي شاء القدر أن يكون من أعظم رجالات القرن العشرين بالقياس إلى تلك الفترة المهمة من التاريخ الجزائري، ومدى ما تحمله الشعب في سبيل الحفاظ على حرته ودينه ولغته، وإنه لا يستقيم عن ابن باديس حديث، ولا ينتظم حوله بحث حتى يعاليج على أنه صحفى - مصلح - زعيم سياسى، وثائر متحفز، وعالم دين من العلماء البررة الصالحين، بل يجب أن يتناول أيضا على أنه خطيب قوى الحججة والبيان .

فى هذه الدراسة العامة تناول الباحث ابن باديس من بعض الجوانب الواسعة الخصبة والمكملة لمعالم شخصيته بصفة عامة :

أولاً : ابن باديس الخطيب .

ثانياً : ابن باديس المصلح والمربى .

ثالثاً : ابن باديس الصحافى والمجاهد السياسى .

### ابن باديس الخطيب

لم يكن ابن باديس مصلحا دينيا، يعنى بالدين وحده، عازفا عن كل ماعدا ذلك كما قد يخيل لبعض الناس، بل كان رجلا مثقفا ملتزما إزاء مجتمعه وإزاء وطنه، يقبل على الكتابات الدينية حيناً، ويعزف عنها حيناً آخر إلى المواضيع الأخرى المختلفة، وكان يضطره إلى طرق هذه المواضيع المختلفة ما كان يتمتع به من مكانة اجتماعية كرئيس جمعية العلماء، وكمدبر لمجلة ذائعة الصيت، وكزعيم شعبى محبوب، فهو يخطب هنا لأنه استدعى فى مناسبة ما، وهو يلقي هنالك قصيدة لأن الحماس الوطنى فاض

على قلبه فلم يستطع له رداً، وأخبال ابن باديس لم يبرز في ناحية أدبية بروزه في الخطابة، فقد كان فارسها المعلم، وزعيمها المقدم، وقائدها البارح في الاستحواذ على قلوب المخطوب فيهم بما أوتى من مواهب عالية في إثارة المشاعر، وإيقاظ العواطف، وتهيج القلوب، وفي النموذج التالي من خطبه مايدل على ما أسلفنا من رأى . يقول :

«أما بعد فسلام عليكم . . يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين وسلام على مساجينكم من المساجين، وسلام على متهميكم من المتهمين، وسلام على منكوبيكم من المنكوبين، سجون واتهامات ونكبات، ثلاث لا تبني الحياة إلا عليها، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحققة إلا على أسسها، فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث، أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها، وسجلت في صحيفة الخلود رسمها، ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها، وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوماً متألقة تأخذ بالأبصار .

هذا الأستاذ العقبي برآته العدالة من التهمة الباطلة، ثم أبت تلك النواحي المظلمة من الحياة الجزائرية إلا أن تعود به إلى التهمة .

وهذا الأستاذ الإبراهيمي سيق إلى المحاكمة على حفلة علمية، وقضى عليه بالغرامة، فلم يكتف في حقه بذلك فرفعت القضية للإعادة، وهو ينتظر ما يكون .

وهذا الشيخ عمر دردور سجن في سبيل نشر العلم والفضيلة، ثم أنصفته العدالة فأطلقت سراحه، فأبت تلك النواحي، إلا أن تعود به إلى القضاء، وهو ينتظر إلى اليوم فصله .

وهؤلاء أهل «سوف» قد ذاقوا من التفرير والنفي والسجن ماذاقوا، وروعوا في ديارهم وأهليهم أفضح ترويع، ثم لم يثبت عليهم شيء مما رموا به إلا رغبتهم في العلم، وطرحهم لسريال الطرقية الوسخ الثقيل .

وهؤلاء رجال التعليم في بجاية، وباتنة وغيرهما . يساقون إلى المحاكمة المرة بعد الأخرى، ويغرمون من أجل التعليم ويهددون بالسجن .

وهذه مدرسة دار الحديث بتلمسان مغلقة إلى اليوم .

وكم أذكر؟ وكم أعدد؟

فلقد هبت الأمة لتعلم دينها في جد ونشاط فاق السنوات المتقدمة فعولجت بهذه البلايا والمحن .

وفيم هذا كله . . على من نرتم ؟ وإلى من أسأتم ؟ وأي حدود تعديتم ؟ وماذا تبتغون ؟

لا ، والله ما أترحم إلا على الجاهل والرذيلة ، وما أسأتم إلا للأثرة والجبرية ، وما تخطيتم إلا حدود الجمود والخرافة ، ولا تبتغون إلا الحق والخير والعدل والإحسان .  
ألا في سبيل الله ما لقيتم . . . ألا في سبيل الله ما أنتم لاقون .

**أيها الإخوان،**

لقد اعتدنا في كل اجتماع من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة ، وإلى الحكومة العليا ، ولم يرد لنا جواب مرة واحدة ، بل يكون الجواب بزيادة الإرهاق وتضييق الخناق .

فصدر قانون النوادي الذي يرمى إلى إخلائها ، وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم ، بعدما حرموا منه في مساجدهم . وصدر قانون ٨ مارس الذي يرمى إلى غلق المدارس ، وحرمان المسلمين من تهذيبهم وتلقين دينهم ، وآداب فنهم ، ولغة دينهم ، وصار من شروط إعطاء الرخصة للقليل الذي أعطيت له أن يعلم على الكيفية القديمة ، في العصر الذي تتقدم الأمم كل عام في أساليب التعليم تُردّ نحن إلى الوراء . . فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور<sup>(١)</sup> .

• عرض وتحليل الخطبة<sup>(٢)</sup> ،

تبدأ الخطبة هادئة لينة ، وساكنة رقيقة ، حتى إذا ما وقع الخبر في أذهان المخاطبين وألوا بطلائع الموضوع الذي يريد ابن باديس أن يطرقه أمامهم ، ويلقيه عليهم ، انقلب الهدوء صخباً ، واللين شدة ، والسكون اضطراباً والرفق عنفاً .

(١) الشهاب ج ٤ المجلد ١٤ ص ١٠٠ - ١٠٣ و تراث ابن باديس إعداد وتصنيف عمار الطالبي ج ٣ ص ٥٦١ - ٥٦٤ بتصرف .

(٢) نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر د / عبد الملك مرتاض ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر . ١٩٥٤ م .

يكسب شحنة هائلة من الحماس المضطرب، والغضب المتأجج، والحمية الحادة في قلوب الحاضرين، فتثور لذلك ثائرتهم، ليثوروا ثورة أزية على الاستعمار الذي أهان الجزائريين في كرامتهم، ومستههم في صميم دينهم، واعتدى على معتقداتهم، ينالون من النكال الفظيع ما لا تحتمله النفوس، ولا تطيقه القلوب.

الخطبة عظيمة الأهمية من حيث محتواها؛ لأنها تبين بوضوح اللهجة التي كان يخاطب بها ابن باديس المستعمرين، فهي تمتاز بالصراحة التامة والجرأة المتناهية، كما تمتاز بالتصوير الدقيق لحالة الاستعمار النفسية، وكيف أنه كان يتصام عن أن يسمع صرخات الوطنيين والمصلحين المدوية، وكأن هذا الاستعمار أراد أن يكون هو المقصود بالذات في قول الشاعر العربي:

لقد أسمعت لو ناديت حيا                      ولكن لا حياة لمن تنادي

فقاتل الله الاستعمار، ما أصم مسامعه، وأقسى جوانحه، وكيف لا يكون أصم المسامع قاسى الجوانح، وهو عدو لدود للشعوب؟

وهل كان الشعب الجزائري إلا أحد هذه الشعوب؟

وهل كان ابن باديس إلا أحد الذين يقودون هذه الشعوب أيضا؟

على أن هذه الخطبة لا تكاد تعطى شيئا كبيرا عن جرأة ابن باديس الوطنية، وشجاعته الأدبية العالية، ضد هجمات الاستعمار وصلواته، ولك فيما ترك من آثاره مسرح فسيح للبحث عن مثل هذه الصفة التي تجسدها في كتاباته المتفرقة هنا وهناك، على أن الخطبة التي حاولنا أن نحلل جانبها مهما منها، لم تكن مرتجلة فيما يظهر، لكنها كانت مكتوبة، ولذلك لا ينبغي أن تعطينا صورة دقيقة واضحة عن مقدرة ابن باديس الخطابية.

والحق أن الرجل كان له من القدرة البيانية على ارتجال الكلام في المواقف العامة ما يجعل خطبه المرتجلة لا تقل روعة وبيانا عن خطبه المهياة، يدل على ذلك تعليق أحد معاصريه على خطبة ارتجلها في سنة تسع وثلاثين وتسعمائة وألف بنادى الترقى بالجزائر، فقد جاء في هذا التقديم أو التعليق الذي كتب قبل إثبات هذه الخطبة ما يلي:

«الخطاب الذي ارتجله الأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في اجتماعها العام بنادى الترقى عام (١٩٣٩م) وموضوعه... العرب في القرآن» وقد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من ألفاظه، فإنه خطاب عظيم في موضوع

خطبته لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القرآن، وغوصه على مغازيه البعيدة، ونفاذه في معانيه العالية<sup>(١)</sup>.

وعلى ما يبدو في هذا التعليق من بعض المبالغة والإطراء فإنه يدل مع ذلك على مدى استحواذ ابن باديس على قلوب المخاطبين، ويبين قدرته الخطابية الفائقة، فهو نص بثابة وثيقة تاريخية عظيمة الأهمية.

وحسبنا أن نشير إليها في مرجعها لمن شاء أن يدرس الخطابة عند ابن باديس ويختص في هذا الجانب<sup>(٢)</sup>.

ولكننا نستطيع أن نؤكد أن الرجل كان له من القدرة الارتجالية ما كان يخول له أن يخطب مرتجلاً كما يخطب مهيناً ومقيداً.

#### ابن باديس المصلح والمربي

يخيل أن لفظي التربية والإصلاح حين نشيرهما حول ابن باديس، يتداخلان لنا، ويتشابهان علينا، حتى لا نستطيع أن نميز بينهما تمييزاً دقيقاً واضحاً يجعلنا نسير في بحثنا على هدى وبيئة تامة، وإن كنا نقر بأن هناك كثيراً من المواطن التي يمكن لنا أن نميز بها بينهما على نحو ما.

فقد كان ابن باديس كثيراً ما يكتب فصولاً طوالاً حول التربية التي نعنى بها التعليم، وكان ينادى بضرورة إصلاح التعليم العربي في الجزائر، وقد كان يقول في جملة ما كان يقول كل حين:

«لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم، فإنما العلماء من الأمة بثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام، وعلمهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماءهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعلم، ونعنى بالتعليم:

(١) الشهاب ج ١ ص ٢١ أعداد فبراير - مارس - إبريل ١٩٣٩ م.

(٢) تراث ابن باديس - إعداد عمار الطالبي الخطبة في ثلاثة أقسام ج ٤ ص ٢٩.

التعليم الذى يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام : يأخذ عنه الناس دينهم ،  
ويقتدون به فيه .

ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوى فى شكله وموضوعه ، فى  
مادته وصورته فيما كان يعلم - صلى الله عليه وآله وسلم - وفى صورة تعليمية ، فقد  
صح عنه - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم أنه قال : «إنما بعثت معلماً» . فماذا  
كان يعلم ، وكيف كان يعلم<sup>(١)</sup> ؟

ويتجلى ابن باديس المربى الروحى فى مثل هذه النصائح والوصايا التى نصح بها  
للمسلم الجزائرى :

«نظف بدنك ، نظف ثوبك ، تبعث الخفة والنشاط فى نفسك وتنبل فى عين غيرك ،  
وتجلبه إلى الاستئناس بمعاشرتك ، قه أهلك وولئك ومن إلى رعايتك مما تقى منه  
نفسك ، وسيّرهم على نظام صحى ، وقانون أدبى - تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء  
عيشك وهدوء بالك .

حافظ على عقلك فهو النور الإلهى الذى منحه لتهتدى به إلى طريق السعادة  
فى حياتك .

فاحذر كل «متعلم» يزهك فى علم من العلوم ، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول  
لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة ، واحذر من دجال يتاجر بالرقى  
والطلاسم ويتخذ آيات القرآن وأسماء الرحمن هزواً يستعملونها فى التمويه والتضليل  
والقيادة والتفريق ويرفقونها بعقاير سميةً فيهلكون العقول والأبدان .

حافظ على حياتك ، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ، ودينك ولغتك ،  
وجميل عاداتك ، وإذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذى أنت  
فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل .

كن عصرياً فى فكرك ، وفى عقلك ، وفى تجارتك ، وفى صناعتك ، وفى فلاحتك ،  
وفى تمدنك ، ورقيك ، كن صادقاً فى معاملتك ، بقولك وفعلك .

احذر من الخيانة ، الخيانة المادية فى النفوس والأعراض والأموال ، والخيانة الأدبية  
ببيع الذمة والشرف .

---

(١) الشهابى ج ١١ م ١٠ ص ٤٧٨ عدد أكتوبر ١٩٣٤ م . وانظر تراث ابن باديس - إعداد عمار الطالبي  
٢١٧ / ٣ .

احذر من التعصب الجنسي المقنن فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط، كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر<sup>(١)</sup>.

والذى يتأمل هذه الوصايا يجد أن ابن باديس فى مستوى الرجل المربى المصلح القائد الحكيم المجرب - فهو لا يرسل الكلام بدون معان، ولا ينطق بغير ما لا يعلم، وإنما يرسل كلماته الحكيمة كالشهب اللامعة التى لا تقع حتى تترك أثرا فيما وقعت عليه. ذلك هو ابن باديس المربى<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

أما ابن باديس المصلح، فقد وجدناه ينادى بإصلاح التعليم كما كان ينادى بإصلاح الدين، وضرورة تجديد مفاهيمه التى لا ينبغى أن تظل جامدة بالية، بل يجب أن تساير العصر، وتتمطط مع مصالح المسلمين تبعاً لتغير الزمان والمكان، لأن الإسلام دين عالمى، وإذا كان كذلك حقا، فما أولى أن ننظر إليه نظرة عميقة واسعة شمولية تجعله يستجيب لمصالح الناس جميعا، ويتفق مع سائر المجتمعات بعد أن يكتفيها بكيفيته، ويطلبها بطابعه. فما قيمة إسلام ترثه عن أبك ثم لا تستطيع أن تصنع به شيئا؟

وفى هذا المقال الإصلاحى الذى كتبه ابن باديس فى مفهوم الإسلام بنوعيه الوراثة والذاتى ما يوضح وجهة نظره فى الإصلاح الدينى بوجه عام يقول ابن باديس:

«يولد المرء من أبوين مسلمين فيعد مسلما، فيشبه ويكتهل ويشيخ وهو يعد من المسلمين: تجرى على لسانه وقلبه كلمات الإسلام وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلامية، فراق روحه أهون عليه من فراق الإسلام، ولو نسبت له غير الإسلام. . . لثار عليك أو بطش بك، ولكنه لم يتعلم يوما شيئا من الإسلام، ولا عرف شيئا من أصوله فى العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، ولم يتلق شيئا من معانى القرآن العظيم، ولا أحاديث النبى الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذا مسلم إسلاما وراثيا لأنه أخذ الإسلام كما وجدته من أهله ولا بد أن يكون بحكم الوراثة قد أخذه بكل ما فيه مما أدخل عليه وليس منه من عقائد باطلة، وأعمال ضارة، وعادات قبيحة، فذلك كله عنده هو الإسلام، ومن لم يوافق على ذلك كله فليس عنده من المسلمين.

(١) انظر تراث ابن باديس - الطالبي ٣ / ١٧٧ - ١٧٩ .

(٢) انظر المرجع السابق ٣ / ١٧٥ - ٢٧٤ .

هذا الإسلام الوراثي هو الإسلام التقليدي الذي يؤخذ بدون نظر ولا تفكير، وإنما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء، ومحبة أهله للإسلام إنما هي محبة عاطفية بحكم الشعور والوجدان.

هذا الإسلام الوراثي هو إسلام معظم عوام الأمم الإسلامية، ولهذا تراها مع ما أدخلت على الإسلام من بدع اعتقادية وعملية، ومع ما أهملت من أخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه متمسكة به غاية التمسك لا ترضى به بديلاً . . . ولو لحقها لأجل تمسكها به ما لحقها من خصومه من بلاء وهوان.

لكن هذا الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأم، لأن الأم لا تنهض إلا بعد تنبيه أفكارها، وتفتح أنظارها.

والإسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر، أما الإسلام الذاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ويتفقه حسب طاقته في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويبني ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان.

هذا الإسلام الذاتي هو الذي أمرنا الله به، في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سورة سبأ الآية ٤٦].

فبالتفكير في آيات الله السمعية، وآياته الكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر، تنهض الأم فتستثمر ما في السموات وما في الأرض، وتشيد صروح المدنية والعمران.

إذن فنحن المسلمين، مطالبون دينياً بأن نكون مسلمين إسلاماً ذاتياً . . . فيماذا نتوصل إلى هذا الجانب المفروض؟

لذلك سبيل واحد هو التعليم، فلا يكون المسلم مسلماً حتى يتعلم الإسلام، فالمسلمون أفراداً وجماعات مسئولون عن تعلم وتعليم الإسلام للبنين والبنات للرجال والنساء، كلُّ بما استطاع، والقليل من ذلك خير كثير: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ [سورة القمر الآية ١٧] (١).

(١) الشهاب ح ٣ م ١٤ الافتتاحية و تراث ابن باديس عمار الطالبي ٣ / ٢٤٠-٢٤٢ .



وأتساءل مع الدكتور مرتاض صاحب كتاب «نهضة الأدب المعاصر بالجزائر» : ما الداعى الذى يدعو إلى نقل مقالة ابن باديس مع إمعانها فى الطول؟

\* إن أهم ما يدعو إلى ذلك هو التأكيد على أن الإصلاح الدينى الذى كان يرمى إليه ابن باديس إنما كان الغرض منه إصلاح المجتمع أولاً وأخيراً، سواء أكان هذا المجتمع جزائرياً أم غير جزائري طالما كان يدين بالإسلام، فقد عمم ابن باديس فى هذا المقال ولم يخصص «فبالفكر فى آيات الله السمعية وآياته الكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر تنهض الأمم فتستثمر ما فى السموات وما فى الأرض، وتشيد صرح المدنية والعمران» فإذا كان المواطن مسلماً عملياً، لا مسلماً يبنى إسلامه على الوراثة والتقليد والاتباع والتسليم... كان مفكراً، وإذا كان مفكراً كان كل شيء، فلا شيء أعلى من التفكير والتفكير، وبذلك يستطيع هذا المسلم أن يستثمر موارد الأرض وأن يستكشف أسرار السماء، فيبنى للحضارة صرحها، وللعمران دعائمه فمعامله.

ولكن هل يكون المواطن المسلم مفكراً وهو جاهل؟ بل هل يكون المسلم ذا إسلام ذاتى حقيقى وهو غير متعلم؟ وإلى أية وسيلة يلتجئ إذا أراد أن يكون إسلامه لا تقليدياً ولا وراثياً. بل إسلامه ذاتياً : أى كاملاً مثالياً؟ ثم إذا أراد أن يكون إسلامه قائماً على الفكر والإيمان والعمل جميعاً، فبأى شيء يتمسك؟ وإذا أراد أن تكون محبته للإسلام محبة عقلية بحكم العقل والبرهان كما هى بمقتضى الشعور والوجدان فبأى حصن يلوذ؟

إن الأمر لهين، والخطب يسير، فسبيله لتحقيق ذلك شيء واحد لا ثانى له وهو التعليم ولكن أى تعليم؟ إنه التعليم القائم على تفهم مبادئ الإسلام وإدراك أصوله العميقة، وفهم معتقداته الراضاءة، إذ «لا يكون المسلم مسلماً حتى يتعلم الإسلام». فإذا لم يتعلم من هذا الإسلام ما يكفل له فهمه وإدراكه والتشيع بمبادئه الكريمة السمحة فهو خليق بأن يضل فى سبيله التى يسلكها للحياة ضلالاً بعيداً، وساء عيشاً من كان من الضالين.

وليس هذا التعلم مما يتعلمه فرد واحد فيسقط عن باقى الأسرة كالتطوع فى عمل جماعى ما، بل إنه تعلم محتوم، يجب على الرجال كما يجب على النساء، وهو مفروض على الأبناء كما فرض على البنات.

\* تأمل هذه الفلسفة الباديسية البارعة فى إقامة كل إصلاح على التعلم، وفهم

الإسلام فهما صحيحا سليما من شوائب السخافات والخرافات ، تجده قد أقام مذهبا فكريا ذا قواعد وأصول .

وهذه القواعد والأصول مستمدة كلها من مبادئ الإسلام ، ومنتزعة من صميم القرآن الكريم ، إنه مذهب فلسفى خليق بأن يدرس دراسة فلسفية عميقة على حدة لتستخرج منه العناصر والأجزاء وتحلل أفكاره تحليلا مفصلا مدققا ، فبدون ذلك لا نستطيع أن نفهم ما كان يرمى إليه ابن باديس .

وعلى أن التعليم فى حد ذاته ليس شيئا ذا بال حتى يكون مصحوبا بالأخلاق لأن الأم تنهض بالأخلاق ، ولا تكون الأخلاق إلا بالتربيتين الوطنيه والدينيه معا ، ولا تكون التربية إلا بالتعلم ، ولا يكون التعلم إلا بالعلماء .

فإنما «الأم بعلمائها الذين يقومون على تربيتها ، وتهذيب أخلاقها وتوجيهها نحو الخير والكمال ، وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقال «إنما بعثت معلما» فالتربية والتعليم هما وظيفة الأنبياء ، وبالقيام بهما كان العلماء ورثة الأنبياء» (١) .

فالعلم لا يكون علما فى نظر ابن باديس إلا بالأخلاق ، كما أن الأم لا تكون أما إلا بالأخلاق ، كما أن الأخلاق فى حد ذاتها لا تكون إلا بالتعلم ، فكأن الأم والأخلاق والتعلم والتدين من الأمور المتلازمة التى لا يقوم أحدها بدون الآخر ، فمن فرط فى ذات الأخلاق فليس من العلماء ، ومن لم يكن عالما فلا دين له لأنه مقلد متبع لا مفكر مجتهد ، ومن زعم لنفسه الأخلاق ثم كان فى أثناء ذلك جاهلا فإنما هو مهرج سخيف ، بل من زعم أنه موجود على الأرض ؛ يشعر ويفكر ويحيا وهو لا متخلق ولا متعلم فإنما هو يتعلق بالأوهام ، ويلوذ بالخيال .

\* وبعد...

هذه بعض مظاهر الفلسفة الباديسية الإصلاحية القائمة على ثلاثة أمور :

الدين - التعلم - الأخلاق .

والمقصود من هذه الفلسفة الإصلاحية ليس الآخرة وحدها ، ولكن الدنيا بالدرجة الأولى ، لأن الأم التى تستثمر ما فى السموات وما فى الأرض فإنما هى أم حية تعنى ببناء اقتصادها وحفظ كيائها الوطنى من الانهيار .

---

(١) الشهاب ج ٨ أكتوبر ١٩٤٨ م .

## ابن باديس الصحافى والمجاهد السياسى

أ - ابن باديس الصحافى:

الصحافة كانت أحد الجوانب المهمة من كفاح ابن باديس الإصلاحى إذ أنشأ المنتقد والشهاب ليؤدى دور المنار فى مصر، ويزيدا عليه الدعوة إلى التحرير السياسى، وإذا كان الاستعمار الفرنسى يزعم أنه يحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية فى العالم فإنه يحاول القضاء على قوم يثنون تحت مظالمه الغادرة، إذ يشن عليهم حرب الإبادة والاستئصال دون ذنب وبلا هوادة.

إذا كان الاستعمار يزعم عكس ذلك فإن ابن باديس قد جعل من صحيفته ميدانا رحبا لإبادة هذا الزعم، فهو يذكر مواطنيه بفظائعه المنكرة فى وطنه الجزائر وأنه - أى المستعمر - لم يحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية كما يزعم.

هذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة ابن باديس وحججه القاطعة على نزالة طغيان المستعمر، وهى التى أوحى له العزم فى جهاده المستشهد حتى تنوعت آفاقه الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فرنسة الجزائر وتنصير المسلمين، ويرد على دعاة الفرنسة المزعومة بمثل قوله فى صحيفة الشهاب إبريل من عام ١٩٣٦:

«إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أم الأرض، وهى ما تزال حية، ولم يزل لهذه الأمة تاريخها اللامع، ووجدتها الدينية واللغوية، ولها لغتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة كمثال سائر أم الدنيا، هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا، ومن المستحيل أن تصبح هى فرنسا حتى ولو جنسوها».

المنهجية الصحفية عند ابن باديس:

ملا أبناء الجزائر قلوبهم حبا لعبد الحميد بن باديس لا لكونه كان عالما، ولا مريبا، ولا سياسيا، ولا مصلحا، فما أكثر المصلحين وما أكثر الساسة، وما أكثر مما يتصور أى متصور، ولأنه - أى ابن باديس - عاش للجزائر ووهبها حياته راضيا مطمئنا مؤمنا بخلودها وعزتها وكرامتها، فقد خلق ابن باديس (أيدولوجية) عظيمة ووطنية خالصة، وأعطى من حياته مثلا قويا للدفاع عن المثلى العليا وعن كرامة الشعوب وحريتها.

كان ابن باديس صحفيا ممتازا، وأستاذا للصحفيين بدون منازع، والجانب الصحفى يظهر فى مجالات مختلفة من حياته.

فهو كرجل مفكر كان يدرك ما للصحافة من أهمية فى نشر الفكرة الإصلاحية ، ويدرك مدى أهميتها فى توعية المواطنين ، كان يؤمن بالصحافة كقوة وسلاح يستعمل فى محاربة الظلم ، والدفاع عن الحرية والحق والسلام ، وكوسيلة فعالة لنشر المعرفة والعلوم .

وقبل أن يشرع فى أى عمل آخر من أعماله الإصلاحية بدأ عبد الحميد يفكر فى إنشاء المطبعة . وكانت الصحافة هى بداية أعماله الإصلاحية .

وبالرغم من العراقيل التى كانت تضعها أمامه السلطات الاستعمارية والمضايقات المالية والإدارية فقد كان يصر على استمرار الصحيفة ، وكلما أغلقت صحيفة أو مجلة كان يسعى لإصدار أخرى . وهكذا ، فلم يفارقه العمل الصحفى إلى أن مات رحمة الله عليه .

والملاحظة التى نخرج بها هى أن ابن باديس كان ينظر إلى المحتوى الصحفى أكثر مما كان ينظر إلى شكله ، فالمهم فى الصحافة هو أن تبلغ فكره بأى لغة كانت .

ويمكن أن نضيف إلى هذا إيمان ابن باديس بالصحافة ودفاعه عنها واهتمامه الواسع بما يصدر عن الصحافة العالمية ، فقد كان يطالع الصحف العربية ، يعلق عليها ، وينقل منها ما يراه متفقاً وفكرته ، ويطالع الصحف الفرنسية ويناقش ما يأتى حول المسائل الجزائرية .

كما كان يطلب من بعض أصدقائه الحصول على الترجمة الفرنسية لجريدة (البرافدا) السوفياتية وترجمتها إلى العربية .

لذا؛ فكل ما كان يصدر فى صحف ابن باديس هو تعبير صادق عن حسن صحافى دقيق ، فكان يهتم بالمسائل الدينية والعلمية والحياتين السياسية والدولية بمنهجية وموضوعية .

وفى كل ما كان يحرر أو ينقل كان ينبىء عن تجديد واسع ، فهو يهتم بالأخبار العلمية العالمية الحديثة وبالثورات التى تندلع فى الشعوب المستعمرة ، وأيضاً يهتم بشعر وشعراء المهجر ، إلى غير ذلك مما يجده المتصفح لصفح عبد الحميد بن باديس ، فلم يكن صحفياً عادياً ، إنما كان أستاذاً للصحافة ، وتتجلى هذه الأستاذية فى كونه كان يعمل فى الصحافة عن خطة ومبدأ ، ومبدؤه أن يكون له صحيفته التى تعبر عن آرائه ، ويتحمل هو مسئولية ما يكتب .

أما الخطة التي يقتضيها التطور فنجملها في الأصول الآتية :

أ - عدم التضييق في الكتابة .

ب - مراعاة الميادين الفسيحة في التفكير والبحث المنتج ، فهناك من المواضيع ما تنفذ الأعمار ولا يتنفذ .

ابن باديس وتقاليد الصحافة المميزة :

إن المتتبع لأثار عبد الحميد بن باديس الصحفية ولأقواله حول الصحافة والصحفيين يمكن أن يصل إلى اكتشاف جوانب فكرية هامة يستحق كل منها الدرس والبحث على حدة .

أ - إن ابن باديس كان أول منسئ لصحافة الرأي أو الصحافة الموجهة أو الملتزمة كما يسميها البعض ، ونحن مازلنا محتاجين إلى صحافة الرأي ، فإن مستقبل الصحافة في العالم كله متوقف - إلى حد بعيد - على عنصر الرأي والتوجيه فالعنصر الخبري في الصحافة يتضاءل باستمرار بالمقارنة مع النشرات الإذاعية والإخبارية .

ب - النزاهة الصحفية وهذه النزاهة التي كان يحرص عليها ابن باديس هي الوسيلة الفعالة لخلق وبلورة الرأي في الصحافة .

والنزاهة في الكتابة الصحفية وفي المناقشة نفقد الكثير منها مع الأسف ، فما زال هناك من ينتفخ كلما وجهت إليه ملاحظة حتى ولو كانت في سبيل الحق .

ج - وضوح الفكرة وبساطة التعبير واحترام القارئ ، وهذه خصائص لا يمكن أن تنجح صحافة بدونها ، وقد تدهش عندما ترى عبد الحميد بن باديس يقدم العدد السنوي من مجلة (الشهاب) ببضعة أسطر ، وليس بمقالة طويلة لا تحمل بين طياتها أكثر مما تحمله هذه الأسطر الموجزة .

هـ - الثقة بالأمة والإيمان بإرادة الشعب ، والعمل على إسماعده ، فهذه الروح كانت تشع في جميع أعمال ابن باديس ، وهي التي تميز كل كتاباته الصحفية<sup>(١)</sup> .

---

(١) ملحق جريدة الشعب الجزائرية - مقال محمد سعيدى ١٩٧١ م .

جانب من اتجاه ابن باديس في كتاباته الصحفية الإصلاحية:

لما أحس الشيخ ابن باديس بصلاية الأرض التي يقف عليها شرع في مهاجمة رجال الطرق الصوفية الذين سيطروا على أفكار العامة، ونشروا بينهم روح الانهزامية والولاء لفرنسا عن طريق حرض الشعب الجزائري على قبول السيطرة الاستعمارية والخضوع لها بدعوى طاعة ولي الأمر، وكانوا يفسرون مدلول الآية القرآنية: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء الآية ٥٩] على هذا الأساس. وقد بدأ الشيخ عبد الحميد حملته على رجال الطرق الصوفية سنة ١٩٢٥م في إطار محاربة الآفات الاجتماعية كالبطالة والجهل، وكل ما يحرمه الشرع كبناء القبور، وإيقاد الشموع عليها، والذبح عندها والاستعانة بأهلها. وقد بين الشيخ عبد الحميد أن الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، مبنية على استغلال الشيخ وإذلال الناس وتجميد عقولهم وقتل شعورهم وهمهم.

وقد اتخذ الشيخ عبد الحميد من جريدة المنتقد التي أصدرها سنة ١٩٢٦م وسيلة لمهاجمة الطرق الصوفية وإظهار تصوفها الخادع لأمتة الجزائرية من الوجهتين الدينية والاجتماعية، وعندما تنبّهت الإدارة الاستعمارية إلى خطورة الشيخ عبد الحميد أصدرت قرارها بتعطيل هذه الجريدة بعد صدور ثمانية عشر عدداً منها، إلا أن عبد الحميد واصل الهجوم على الطرقية من خلال جريدة الشهاب التي أصدرها بعد إغلاق المنتقد إلا أنه تمكن من خداع الإدارة الاستعمارية بتخفيف لهجة كتابته.

وقد بدأ عبد الحميد في نشر آرائه العلمية والدينية، كما بادر أحمد توفيق مدني بالكتابة فيها عن المجتمع الجزائري، هذا فضلاً عن عدد من أصدقاء وتلاميذ ابن باديس شاركوا في الكتابة فيها.

كما شارك بالكتابة بهذه الجريدة بعض علماء شمال إفريقيا إذ كتب فيها من تونس بعض الشخصيات التونسية المعروفة.

ولم يكن الشيخ عبد الحميد بن باديس يتصحف من أجل أن يرتزق، كما لم يكن ينشر الحقائق من أجل أن تباع مجلته التي كان لها قراء محدودون مهما كانوا كثراً، إذ راعينا قلة عدد المثقفين بالعربية على عهد ابن باديس، فقد كان ابن باديس إذن الصحافي المثالي الشريف الذي يقول الحق، ولا يخشى في قوله ملامة اللائمين، ولا عقاب الظالمين.

ب - ابن باديس المجاهد السياسى:

من أبرز الجوانب التى تستلفت نظر الباحث فى شخصية ابن باديس هو الجانب السياسى فيه، فقد كان ابن باديس يهتم بالمشاكل السياسية ويتناقش فيها، ويتحدث إلى الجماهير عنها، لكنه لم يكن يقتصر فى تناولها على الجانب الأنى الذى يشترك فى تصويره كل المثقفين، بل كان يتجاوز ذلك إلى تحليل كل الأبعاد العميقة التى لا تظهر للعيان فى الحال لأنها ماتزال مختفية فى أطواء المستقبل، وكان وهو يتعرض لقضية قائمة لايفوته أن يستخلص المبادئ العامة التى تقوم عليها، ويصوغها صياغة تصلح معها لأن تكون منهاجا كاملاً، وليس مجرد مقال عابر أو خطبة سياسية.

ومن أبرز مميزاتة فى هذا المجال أنه كان يهتدى لأحسن الشعارات تعبيراً عن طبيعة المرحلة، فقد كان الشعار الذى يضعه على غلاف «الشهاب» فى الثلاثينيات هو «الحق - العدل - المؤاخاة فى إعطاء الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات».

وكان هذا الشعار فى أعوام ١٩٢٩، ١٩٣٠، ١٩٣١ م تعبيراً عن اهتمامات مرحلة معينة من مراحل الكفاح السياسى. كان اهتمام، السياسيين فيها منصرفاً إلى الحصول على جميع الحقوق المدنية والسياسية وإلغاء الفروق التى كانت تجعل من الجزائرى مواطناً من الدرجة الثانية<sup>(١)</sup>.

طرق احتجاج ابن باديس على الحكومة الفرنسية:

كان لعبد الحميد فى الاحتجاج على سياسة الاستعمار طريقتان:

أ - الطريقة الرسمية بصفته رئيساً لجمعية العلماء المسلمين لا تتعدى حدود القانون حتى يضمن المحافظة على الجمعية.

ب - الطريقة الشخصية بصفته عبد الحميد بن باديس، وهى الاحتجاجات اللاذعة التى ينعت فيها الاستعمار بكل النعوت، وأسلوب عبد الحميد فى التعامل مع الاستعمار يجمع بين المناادة بالوحدة بين صفوف الأمة الجزائرية التى فرقته السياسة والمحافظة على كرامتها، وتكرار المناادة بالمساواة فى المجالس النيابية رغم قرن السياسة الفرنسية هذا الشرط بالتخلى عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامى.

---

(١) ابن باديس هذا المجهول - محمد الميلى - ملحق جريدة الشعب الجزائرية عام ١٩٧١ م.

ورغم رفض العلماء التنازل عن أحوالهم الشخصية فإنهم طالبوا بالمساواة،  
وعبد الحميد في الطريقة الشخصية لا يهيمه المحافظة على شخصه الذي نذره لخدمة  
قضية بلاده، أما بصفته رئيساً لجمعية العلماء فإن احتجاجاته لا تخرج عن الطور  
الرسمي محافظة منه على الجمعية كرمز لفكرة العروبة والإسلام.

محاولة القضاء على سياسة ابن باديس :

عندما أدركت الإدارة الاستعمارية في الجزائر خطورة العلماء على سياستها في  
الجزائر بعد فوات الأوان، فإنها سعت إلى فرط عقد هذه الجماعة صاحبة التأثير على  
أفراد الأمة الجزائرية بتدبير حادث اغتيال الشيخ كحول مفتي الجزائر في أغسطس سنة  
١٩٣٦م، ثم وجهت تهمة اغتياله للشيخ العقبي - وهو من كبار معاوني ابن باديس -  
الذي لاقى من عنت الإدارة الفرنسية الشيء الكثير .

ولما لاحت بوادر الحرب العالمية الثانية سعت فرنسا لجلب تأييد كل الجماعات  
السياسية الجزائرية لها، فوفقت إلا مع العلماء الذين رفضوا الخروج عن مبادئهم، فكان  
أن أرسلت الإدارة الفرنسية رسولا إلى الشيخ الطيب العقبي ليعرض الأمر على  
عبد الحميد بن باديس الذي جمع العلماء في مناقشة حول إرسال برقية تأييد لفرنسا،  
وحدث اختلاف في صفوف العلماء، قرأى يميل مع العقبي صاحب فكرة مهادة  
السلطة بعدما رأى قسوتها أيام اعتقاله للإبقاء على مدارس ونوادي الجمعية وعدده  
أربعة أصوات .

ورأى آخر ضد إرسال برقية التأييد وعدده ١١ صوتا، وعندئذ أوضح ابن باديس  
رأيه : في أنه ضد إرسال البرقية التي يرفض التوقيع عليها حتى لو قطعوا رأسه، فكان  
أن أعفى العقبي من عضوية العلماء، وأدى موقف عبد الحميد ابن باديس المتشدد  
وجماعته إلى تحرش الإدارة بهم؛ إذ حاولت الاستيلاء على مدرسة التربية والتعليم  
بقسنطينة، وأن تحمل اللغة الفرنسية فيها محل اللغة العربية مما حدا بابن باديس إلى  
استنكار السلوك الفرنسي والإصرار على موقفه المتشدد. وقامت الحرب العالمية الثانية  
وتوفى عبد الحميد بن باديس في ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠م<sup>(١)</sup>.

(١) الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر - د/ نبيل أحمد بلاسي ص ٩١ .



وابن باديس المجاهد السياسى شهد له بهذه الصفة أصدقاؤه وأعداؤه جميعا، ولعل من القول الفصل أن أنقل فقرات مما قالت فيه إحدى الصحف الفرنسية التى كانت تصدر بتونس حين سافر ابن باديس إليها من أجل حضور حفل ذكرى وفاة البشير صفر قالت Le Petit Matin :

«والشيخ ابن باديس يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته النارى، يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل فى القلوب سكينه السلام، وهو الرجل الذى وصل فى القطر الجزائرى إلى درجة التقديس، وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة. أما سمعته فقد احترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله . .

إن عملا يقوم به ابن باديس لا يمكنه أن يتضاءل ولا أن يقف، إنه لعمل لا يسير إلا إلى الأمام، ولا بد له من أن يتضخم وأن ينتشر وأن يكتسح كالسيل العرم المدن والبادية، فيحىى الموات، ويتلف المعارضة.

لقد حرك الشيخ بكلماته أوتار القلوب، فأبدع وأدهش، وقطع الأنفاس من شدة التأثير، وابتلت المحاجر وسالت الدموع.

إن الذين يسوقون الشعوب من أمثال ابن باديس كانوا دائما يصلون إلى أعلى الدرجات، إن لم يتموا أيامهم فى المضيق المظلم، وإن لم يأت الاعتداد السياسى على تلك الحياة فيختم صفحتها.

وإن ابن باديس من هذه الناحية لقريب إلى «ميرابو» و«جوريس» و«زغلول» لقد كان يستطيع أن يفعل ما يريد فى الجموع التى كانت تستمع إلى خطابه.

وهذا مانستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة، وهل من اللازم أن أقول بأنه عندما سكت هذا الرجل، وصفق له الناس تصفيقا لم أر مثله فى حياتى، أصبح كل كلام بعد ذلك غير مساغ . . (1).

والحق أن هذا النص القيم يمكن أن يكون وثيقة ذات شهادتين فى قوتها لأن كاتبه ليس جزائريا فيتسرب إليه الطعن العاطفى، ثم لأن النص كتبه فرنسى - فى أغلب الظن - وهو على كل حال لم يكتب أصلا بالعربية، وإنما كتب بالفرنسية، وهو صالح لأن يدرج للاستشهاد به على زعامة ابن باديس السياسية، وعلى سمعته الشعبية الفائقة

---

(1) Le Petit Matin De Mai 1937 - ترجمة الشهاب ج ٥ م ١٣ يوليو ١٩٣٧ م.

حتى إن هذه الصحيفة ذهبت إلى أنه كان يمثل تسعة أعشار الأمة الجزائرية، وفي هذا لابن باديس شرف عظيم أن تقول فيه صحيفة أجنبية هذا، وتشهد له هذه الشهادة. فقد كان ابن باديس محبوباً في قلوب الناس، أثيراً لديهم حقاً، ولعل ذلك كان يأتي إليه من كونه عاملاً لا يعرف الراحة وثائراً لا يعرف السكون والمداهنة، عالماً ينشر العلم حيثما حل، خطيباً مفوهاً مصقلاً يستطيع أن يعبر عن أفكاره ببيان عجيب، فصيحاً جهورى الصوت.

ونحن لسنا نرتاب أدنى ارتياب في أن حكم الصحيفة التونسية الفرنسية اللغة، كان حكماً رزيناً خالياً من الحماس والعاطفة، صادقاً لا أثر فيه للكذب أو التزوير؛ لأن ذلك الصحافي الذي تحدث عن ابن باديس لم يكن جزائرياً، بل لم يكن حتى عربياً، وإنما كان يصف ما شاهدت عيناه، ويعبر عما سمعت أذناه، ويترجم عما يعتلج في نفسه وقلبه من لواعج وخواطر، فهو وصف شاهد عيان، وليس الخبر كالعيان - كما يقول المثل العربي .

#### نهاية صفحة الجهاد :

لعل خير ما نختم به هذه الصفحة البيضاء من جهاد عبد الحميد بن باديس أن ننقل شهادة الكاتب الفرنسي - فرانسيس جانسون - كما سجلها الأستاذ أنور الجندى في كتابه : «الأدب في معركة التجمع والمقاومة» ص ٩٣ حيث قال الكاتب الفرنسي في صراحة سافرة :

«إن المعركة الباديسية أحدثت إصلاحاً شاملاً فيما وصل إليه الإسلام بعد تخلصه من التحريف والشوائب التي علقت به نتيجة للتفسيرات المشكوك في صحتها حيث تراكمت خلال قرون عدة، كما عملت على تعميم الثقافة العربية بإنشاء مدارس تتولى تدريس اللغة العربية ونشرها في الجزائر، كما نشرت الوعي القومي مما وقف عقبة في وجه السيطرة الاستعمارية وما أقلق سلطات الاستعمار التي كانت تستخدم فئة من رجال الدين المأجورين لتجعل الإسلام وسيلة لتخدير الشعب، كما قاومت خطة القضاء على اللغة العربية واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها، ودثر ثقافتها لتصبح نوعاً من التراث الذي لا يجد مجالاً للبقاء في غير بضع عشرة مدرسة من المدارس العتيقة التي تقرئ القرآن» .

هذا مقاله فرانسيس جانسون، وهو قول موجز جامع يعد شهادة صادقة لابن باديس من فرنسى كان يتمنى فى أعماقه ألا تكفل الحركة الباديسية بالنجاح.

\* وبعد...

فقد رأينا أن ابن باديس كان أمة قائمة بذاتها، فهو مصلح دينى ومفكر إنسانى، ومرب معلم، وهو خطيب مفسر، وهو صحافى قدير، وهو سياسى محنك يعرف كيف يشور وكيف يسكن، وهو زعيم شعبى محبوب، وهو واعظ مؤثر فى القلوب<sup>(١)</sup>.

---

(١) واقع الجزائر وثورة الإصلاح بتصريف ص ١٠٨ - ١٢٠ . ونهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر - د/ مرتاض الفصل الثالث - ابن باديس بتصريف .